IUG Journal of Humanities Research
Peer-reviewed Journal of Islamic University-Gaza

E-ISSN: 2410-3179
P-ISSN: 2410-3160

IUGJHR
Vol 30, No 4, 2022, pp 114 -158

Received on (08-03-2022) Accepted on (31-05-2022)
https://doi.org/10.33976/IUGJHR.30.4/2022/6

Prices in the Bilad Al-Sham in the Ayyubid Period (570_658 AH/1174-1260AD)

Amin R. Abu Khalil[*1], Fawzi K. Al-Tawahia[*2]
History Department - University of Jordan - Amman – Jordan[*1,2]
[*]Corresponding Author: abukhalilamin@gmail.com

Abstract:
This research aims to study the prices in the Bilad Al-Sham during the ayyubid Era (570_658 A.H\ 1174_1260 A.D), the factors affecting them, the procedures that were taken by the government to stop the state of manipulation and vacillation.
The study concluded that the Bilad Al-Sham's prices were the highest of all the neighboring regions; they also differ from city to city, according to the different circumstances, scales and coins between them.
The study showed that the Bilad Al-Sham's prices were at a inflation repeatedly due to natural Causes; such as droughts and the spread of plagues and disease infested rats and locusts ,Not to mention earthquakes, and of course political factors, such as wars ,as in the Frankish wars, the disputes in the ayyubid house, and the Mongolian raids, along with the political views of certain ruling family members, all these factors aided in the inflation of prices.
The ayuubid government tried to put an end to this inflation of prices by reconsidering certain sections, and paying more attention to both the agricultural sector and the commercial sector, and setting the coin weight, and put a firm grip on the market, especially preventing monopoly, setting the scales to a standard, and transferring the food commodities from Egypt to the Bilad Al-Sham.
Keywords: The Ayyubid state, The Bilad Al-Sham, Prices, High prices, The Crusades Wars.

الأسعار في بلاد الشام في الفترة الأيوبية (570_658هـ/1174_ 1260م)

أمين ربحي أبو خليل[1] ، د. فوزي خالد الطواهية[2]
قسم التاريخ-الجامعة الأردنية-عمان-الأردن[1,2]

الملخص:
يهدف هذا البحث إلى دراسة الأسعار في بلاد الشام خلال فترة الحكم الأيوبي (570_658هـ/1174_ 1260م)، والعوامل المؤثرة فيها، والإجراءات التي اتخذتها الدولة لوقف حالة التذبذب والتلاعب.
وخلص البحث إلى أن أسعار بلاد الشام كانت الأكثر ارتفاعاً بين الأقاليم المجاورة، كما أنها تختلف من مدينة لمدينة، تبعاً لاختلاف الظروف العامة واختلاف الموازين والمكاييل والنقود فيها.
وبينت الدراسة أن الأسعار في بلاد الشام تعرضت للارتفاع بشكل متكرر بفعل عوامل طبيعية؛ كالقحط والجفاف وانتشا الجراد والفئران، وانتشار الأمراض، والزلازل، وعوامل سياسية، متمثلة باستمرار الحروب الفرنجية، والنزاعات داخل البيت الأيوبي، والغزو المغولي، وسياسات بعض أفراد الأسرة الحاكمة كممارسة الاحتكار والاتجار.
حاولت الدولة الأيوبية الحد من ارتفاع الأسعار، من خلال إعادة النظر في الاقطاعات، والاهتمام بقطاعي الزراعة والتجارة، وضبط وزن العملة، وتشديد قبضتها على الأسواق، وبخاصة فيما يتعلق بمنع الاحتكار، وضبط المكاييل والأوزان، ونقل الغلال من مصر إلى بلاد الشام.
كلمات مفتاحية: الدولة الأيوبية، بلاد الشام، الأسعار، الغلاء، الحروب الفرنجية.

مقدمة:

تحاول الدراسة* أن تبحث في أسعار بلاد الشام خلال حقبة تميزت بالفوضى العسكرية، فقد ورثت الدولة الأيوبية أوضاعاً سياسية واقتصادية غاية في الصعوبة، فعلى صعيد الأوضاع السياسية، كان العالم الإسلامي منقسماً بين الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القاهرة، وكانت كلتا العاصمتين في أسوأ أوضاعها، فيما كانت أجزاء من الشام تخضع للاحتلال الأوروبي الفرنجي، ولم تكن الأوضاع الاقتصادية أفضل حالاً، فالزراعة متدهورة والصناعة شبه معدومة، والتجارة بين غاز طامع وبدوي قاطع.

تهدف الدراسة إلى استعراض العوامل والأسباب التي أدت إلى تلاعب الأسعار في بلاد الشام خلال الحقبة الأيوبية، محاولةً الإجابة على ثلة من الأسئلة، أهمها؛ ما هي الظروف التي أدت إلى تذبذب الأسعار خلال الفترة الأيوبية في بلاد الشام، وما دور الدولة في ذلك؟ هل استطاعت الدولة الأيوبية من السيطرة على المعاملات التجارية داخل مناطق نفوذها؟ هل كانت للسياسات الحكومية دور في رفع الأسعار أو تخفيضها؟ كيف أسهمت الصراعات الأيوبية في تفاقم الأوضاع الاقتصادية؟ وأخيراً هل لعبت الظروف الاقتصادية العامة ومن ضمنها حركة الأسعار دوراً في تسريع انهيار الدولة الايوبية؟

لقد تميزت الأسعار خلال الفترة الأيوبية بحالة من التذبذب، متأثرة بالظروف الطبيعية، كقلة الأمطار وانتشار الأمراض والجراد والفئران، إلى جانب تعرض الشام للزلازل، كما تأثرت بالأوضاع الحربية، متمثلة باستمرار الحروب الفرنجية والنزاعات الأيوبية واجتياح المغول، إلى جانب سوء الإدارة الأيوبية، وعلى الرغم من كل مساعي الدولة لضبط تلك الحركة، إلا أن دورها كان ضعيفاً ومحدوداً.

افتقرت المكتبات العربية إلى دراسة شاملة، توضح فيها العوامل المؤثرة على تذبذب الأسعار في بلاد الشام خلال الفترة الأيوبية، ولعل أقرب الدراسات التي تناولت الأسعار خلال الفترة الأيوبية، هي دراسة الباحث فوزي طواهية، والتي جاءت تحت عنوان " النشاط التجاري وحركة الأسعار في مصر زمن الأيوبيين (569_ 648هـ)[1]، إلا أن الدراسة قد تناولت الأسعار في مصر، ولم تتطرق إلى بلاد الشام، وعلى الرغم من تشابه بعض الظروف المؤدية إلى تذبذب الأسعار، إلا أن الشام كانت لها خصوصية منفردة عن مصر، بفعل عاملي الظروف الطبيعة والظروف السياسية والحربية، إلى جانب هذه الدراسة، فقد نشرت مجلة المنارة في عددها الثاني لسنة 2008م، دراسة حول العوامل المؤثرة في تذبذب أسعار المواد الغذائية في بلاد الشام خلال العصرين المملوكين للباحث فيصل بني حمد[2]، وعلى الرغم من تشابه الظروف الطبيعية المسببة لغلاء الأسعار في كلا الفترتين (الايوبية والمملوكية)، إلا أن الاختلاف كبير بين الفترتين سواء من ناحية الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، أو من خلال طبيعة الأسعار نفسها.

وتشكل دراسة ظاهرة الأسعار في أي حقبة أهمية كبيرة، إذ أنها العامل الرئيس لتذمر الناس وتحركهم ضد الحكومات، من هنا تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تحاول رسم صورة عن الأوضاع المعيشية في بلاد الشام، من خلال استطلاع ورصد قائمة الأسعار الضرورية والأساسية، ومن جهة أخرى، فإنها تسلط الضوء على جانب أخر من الدولة الأيوبية، فعلى الرغم من كون هذه الدولة قد نشأت في ظروف حربية، ما جعلها ذات طابع عسكري، إلا أنها لم تهمل الجانب الاقتصادي، ويحسب للدولة الأيوبية سعيها الدؤوب لتحقيق نهضة اقتصادية وعلمية، بالرغم من كل المعيقات التي رافق تاريخ هذه الدولة، كما أن الدراسة تأطر للعلاقة التكاملية بين الطبيعة والسلوك البشري، حيث استغلت بعض فئات المجتمع الشامي (التجار والمحتكرون من كبار رجال الدولة) الظروف الطبيعية التي مرت بها بلاد الشام، مما أدى إلى تفاقم الأوضاع الاقتصادية، وذلك من خلال رف أسعار السلع الأساسية.

---

*) هذه الدراسة للباحث أمين أبو خليل، ضمن فصل من فصول إطروحة دكتوراة بعنوان: الأسعار والرواتب والأجور في بلاد الشام خلال الفترة الأيوبية، تحت إشراف الدكتور فوزي طواهية، الجامعة الأردنية، قسم التاريخ.

1) طواهية، فوزي، النشاط التجاري وحركة الأسعار في مصر زمن الأيوبيين (569_ 648هـ/1173_1250م)، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، م42، ع2، الأردن، 2015م.

2) بني حمد، فيصل عبد الله، العوامل المؤثرة في تذبذب أسعار المواد الغذائية في بلاد الشام في العصرين المملوكيين الأول (648_784هـ/ 1250_1381م) والثاني (784_922هـ/ 1381_1517م)، مجلة المنارة للبحوث والدراسات، جامعة آل البيت، م14، ع2، الأردن، 2007م.

يقول "جويتين" في كتابه "مجتمع البحر المتوسط المجتمعات اليهودية كما صورتها وثائق الجنيزا": " إن دراسة الأسعار في العصور الوسطى، كمن يحاول حل معادلة رياضية من أربع مجاهيل، ذلك أننا بحاجة لمعرفة جودة المنتج، والوزن والقياس، والوقت والمكان والظروف الخاصة، وغالباً ما كان يذكر السعر مع إحدى تلك العناصر، أو عنصرين"[3]، والسعر عنصر متغير وغير ثابت، ويتعرض بين فترة وأخرى للارتفاع والهبوط دون تحديد نسبة لذلك، ومختلف من مكان لآخر، وتختلف قيمة السلع باختلاف أماكن إنتاجها.

الأسعار في بلاد الشام في الفترة الأيوبية:

تباينت الأسعار بين مدن الشام، تبعاً للظروف، ولطبيعة المدينة، فأسعار دمشق وحلب والقدس، أعلى من حمص وحماة وبعلبك وصيدا[4]، وأسعار حلب في الفواكه أرخص من دمشق، وعدا ذلك فأسعارهما في الظروف الطبيعية واحدة[5]، ومدن الساحل كلها تتقارب في مقاديرها وأحوال أهلها وأسعارها، وهي أرخص سعراً من مدن الشام الداخلية[6].

كما تختلف الأسعار في المكان الواحد بين موسم وأخر، وبين فصل وفصل، وبين يوم في بداية الأسبوع وآخره، وبين صباح ذلك اليوم وآخره، فالأسعار ليس لها مبدأ، وكان التجار والباعة يبررون ذلك بالمقولة الدارجة " الأسعار بيد الله"[7]، كما أن الارتفاع أو الهبوط قد لا يشمل كافة السلع، فقد يكون الارتفاع أو الهبوط لسلعة معينة دون غيرها[8]، وعادة تبلغ نسبة ارتفاع الأسعار في الظروف الطبيعية ما بين 20_25%، وفي الظروف غير الطبيعية تصل ما بين 50_100%[9].

يشمل السعر النهائي للسلعة، نسبة ربح التاجر، والتي تتراوح في الظروف الطبيعية ما بين 13_20% من السعر، وقد تصل في ظل الظروف غير الطبيعية ما بين 50_100%[10]، بل إن بعض التجار كان يطلب خمسة أمثال ما تساويه سلعته بعد جدل طويل[11]، ويضاف للسعر، نفقات الشحن والنقل التي كانت تتراوح نسبتها إلى السعر ما بين 3_5%، وأحياناً 10%، والسمسرة التي تتراوح ما بين 2_7%، والضرائب والمكوس التي تتراوح نسبتها ما بين 2_10% من سعر السلعة[12]، والتخزين حيث إن بعض المنتجات بحاجة إلى تخزينها في أماكن بعيدة عن الماء والهواء والفأر، وخاصة الغذائية[13].

وتحتاج بعض السلع إلى التغليف لنقلها من مكان لأخر، وتتراوح نسبة التغليف للسعر ما بين 3-5%[14]، والغاية من التغليف؛ حماية السلع والبضائع من التلف والعفن والتخريب؛ بفعل الرطوبة والأمطار والغبار والفئران والجراد، وفي سبيل الحفاظ على تلك المنتجات، اتخذ الباعة والتجار طرقاً وأدوات لحماية منتجاتهم منها؛ تغليفها بطبقة من القطن[15]، ثم بطبقة من الصوف، وأحياناً كانت تغلف

) Goitein, S.D, A Mediterranean Society, The Jewish Communities of the World as Portrayed in the Documents of the 3 Cairo Geniza, London, University of California Press, 1999,v1, p217.

4) ابن فضل العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله(ت749هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق، كامل الجبوري، بيروت، دار الكتب العلمية،2010م، ج3، ص364، 366، 368.

5) القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القاهري (ت821هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه، محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987م، ج4، ص223.

6) الشريف الإدريسي، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الحموي (ت559هـ) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، 1989م، ج1، ص364.

7) Goitein, op.cit, v1, p219.

8) مهران، زكريا، التاريخ يفسر التضخم والتقلص، القاهرة، مؤسسة هنداوي، 2014، ص29.

9) Goitein, op.cit, v1, p217, 223.

10) Goitein, ibid, v1, p200,203

11) البنا، عبد الحافظ، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، القاهرة، دار عين للدراسات، 2007م، ص107.

12) Goitein, op.cit, v1, p185, 327.

13) الصيفي، أحمد إبراهيم، القوافل التجارية بين مصر وبلاد الشام فترة الحروب الصليبية، دمشق، نور حوران للدراسات والنشر والتوزيع، 2019م، ص39_41.

14) Goitein, op.cit, v1, p95.

15) علي، علي السيد، طريق القوافل القاهرة–دمشق في عصر الحروب الصليبية، ندوة طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر العصور، القاهرة، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، 2000م، ص464.

بالخيوش الكتانية، أو توضع في الجرار، مثل طريقة حفظ الدقيق[16]، أو وضعها في أقفاص مغلفة كالسكر[17]، وأحياناً كانت تستخدم السلال لحفظ الفاكهة والبلح[18]، والأوعية النحاسية الكبيرة لحفظ التوابل[19].

وتخضع السلعة حتى وصولها إلى السوق لمجموعة من الإجراءات القانونية، يتم فيها تدوين البيانات الكاملة، حيث يتم تسجيل البضائع والضرائب والمكوس الجمركية، ويتولى موظفو الدولة أو موظفو ديوان المتجر ذلك، وأحياناً يتم تحديد سعر السلع إذا كانت الظروف غير طبيعية، أما في الأوضاع الطبيعية فإن السعر يترك للتجار، ثم تتجه السلعة نحو السوق حيث تباع للمستهلك لاحقاً، أو تعرض في حلقات (مزاد علني) وهي بيع السلع بالجملة، حيث يتنافس التجار المحليون على اقتنائها وتتم تحت إشراف الدولة، أو تخزن في المخازن الحكومية أو في المتجر السلطاني[20].

أما طرق الدفع فهي؛ طريقة المقايضة، وهي أقدم أنماط المعاملات وأكثرها رواجاً، وكان يفضلها البائع والمشتري، وهي طريقة مضمونة الربح، ولم يكن للدولة دور فيها[21]، وطريقة الدفع النقدي، التي كان يدفع فيها التاجر ثمن السلعة بشكل مباشر، وطريقة تحويل المبلغ إلى شخص آخر، أو عن طريق السفتجة*، وكانت الدولة أو الصيارفة يفرضون على السفتجة درهماً أو ديناراً مقطوعاً[22]، وطريقة البيع الآجل؛ أي حجز المنتج قبل وصوله إلى السوق، وكان بعض التجار يقسمون عملية الشراء إلى دفعات، بين الأولى والأخيرة خمسة عشر يوماً، تحسباً لتقلب الأسعار[23]، وكان تجار الجملة هم الأكثر احتكاراً للسلع[24].

وقد عرفت الشام مكاييل وموازين متنوعة ومختلفة عن بعضها البعض، فقد استخدمت دمشق والقدس والكرك وغزة وعسقلان الغرارة*، فيما استخدمت حلب وحماة وحمص المكوك[25]، وغرارة دمشق تختلف وزناً عن غرارة القدس وغزة، فغرارة دمشق تزن 204,5 كغم، وغرارة غزة تزن 307,75 كغم، وغرارة القدس 613,5 كغم، وأرطال المدن الشامية مختلفة، فرطل دمشق يزن 1,85 كغم، ورطل حلب 2,273 كغم، ورطل القدس 2.5 كغم، ورطل حمص 2,7 كغم[26].

16) أبو الفضل الدمشقي، جعفر بن مسلم بن علي الدمشقي (ت القرن 6هـ)، الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، ط1، اعتنى به وقدم له وعلق عليه، محمود الأرناؤوط، بيروت، دار صادر، 1999م، ص27_50.

17) ابن اياس، محمد بن شهاب الدين بن أحمد بن إياس أبو البركات الحنفي (ت930هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، مكتبة مدبولي، 2005م، ج1، ص484.

18) Titt, Charles, Boat and Caravan through Egypt and Syria, fifth edition, London, 1937, p219_222; Salvator, Ludwing, Caravan Route between Egypt and Syria, Trans. From German by wartegg, London, 1881, p34

19)Fabri, Felix, The Book of Wandering of Brother Felix Fabri, Trans, by, Stewart Aubery, London, 1894, V2, p226.

20) المخزومي، أبو الحسن علي بن أبي محمد بن يوسف(ت585هـ)، المنتقى من المنهاج في علم خراج مصر، نشره وحققه، كلود كاهن، مراجعة، يوسف راغب، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1986م، ص9_46.

21) ميتز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية، محمد عبد الهادي، فهرسة، رفعت البدراوي، بيروت، دار الناشر العربي، 1947م، ج2، ص389.

*) السفتجة: بمثابة الحوالة لمن عنده المال في ذلك البلد على أن يعطيك الوكيل مثل المال الذي دفعته قبل سفرك، والغرض من هذه العملية هي الحفاظ على المال من مخاطر الطريق التي قد يتعرض لها حامل المال. السرخسي، شمس الأئمة محمد بن أحمد بن أبي سهل(ت483هـ)، المبسوط، بيروت، دار المعرفة، 1993م، ج14، ص37.

22) Goitein, op.cit, v1, p243.

23) أبو الفضل الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص60، 70-72.

24) البنا، أسواق الشام، ص112.

*) الغرارة: مكيال للقمح والشعير، وهو عبارة عن وعاء من الخيش، أو الصوف، يقابلها الأردب في مصر، ونسبة ما بين الغرارة والأردب أن كل غرارة ومد ونصف ثلاثة أرادب بالمصري، وهي مكوكان ونصف. ابن فضل، مسالك الأبصار، ج3، ص278؛ هنتس، فالتر، المكاييل والموازين الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة، كامل العسلي، الأردن، الجامعة الأردنية، 1970م، 79.

25) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص122، 188، 205، 223، 240، 243، 246، 247.

26) هنتس، المكاييل والموازين، ص32_35، 64.

العوامل المؤثرة على الأسعار:

الظروف الطبيعة:

يطلق عليها الآفات أو الكوارث الطبيعية التي لا علاقة للإنسان بحدوثها، ومنها ما يتعلق بالزراعة، كانقطاع المطر، والسيول وحدوث الفيضانات، والجليد والثلج، وانتشار الجراد والفئران والدود، وهبوب الريح، ومنها ما يتعلق بكافة المجالات، كتعرض البلاد للزلازل، وانتشار الأمراض.

الآفات الزراعية:

تعرف الآفة بأنها العاهَةُ، أو عَرَضٌ مُفْسِدٌ، أو الجائحة، وهي نقيض الصِّحَّة، وهي كل ما يصيب الزرع والثمار أو الكلأ فتفسده أو تحرقه[27]، بناءً عليه يمكن تعريف الآفات الزراعية بأنها كل ما يصيب الزرع أو الشجر، ويتسبب لها بخسائر بصورة مباشرة أو غير مباشرة في جميع مراحل نموها حتى بعد مرحلة التخزين؛ مما يؤثر على الإنتاج الزراعي كما ونوعا.

حالات القحط والجدب:

أصابت حالات القحط والجدب بلاد الشام عدة مرات خلال فترة الحكم الأيوبي، على أنها لم تكن دائماً تعم جميع مدن بلاد الشام؛ لاختلاف مناخها وتنوع تضاريسها.

تزامن دخول الأيوبيين الشام بحالة من القحط والجدب عام 570هـ/ 1174م، واستمرت الحالة حتى العام التالي[28]، وتكررت الحالة في عامي 573هـ/1177م[29]، و574هـ/1178م[30]، وكان عادة يتبعها انتشار الأمراض والأوبئة، وقد أدت تلك الظروف إلى تدهور القطاع الزراعي[31]، وغلت الأسعار حتى عدم اللحم[32]، وبلغت غرارة القمح في دمشق عشرين دينار صورية، وأكلت الناس الميتة[33]. وتعرضت الشام مجددا للجفاف عام 613هـ/1216م، حيث قلت الأقوات وارتفعت الأسعار[34]، كما تعرضت بعض مناطق الشام في عام 621هـ/1224م لحالة من القحط والجدب، فلم تسقط الأمطار حتى بداية شهر شباط، فجاءت الغلات قليلة[35]، وانقطع المطر

27) الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن غنيم البصري(ت170هـ)، كتاب العين، تحقيق، مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، د.م، دار ومكتبة الهلال، د.ت، ج8، ص410؛ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين الأنصاري محمد بن مكرم بن على الإفريقي (ت 711هـ)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، 1414هـ، ج13، ص520.

28) أبو شامة، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي (ت665هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، 2002م، ج2، ص255.

29) العماد الأصفهاني، عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني (ت597هـ)، البرق الشامي، تحقيق، فالح حسين، عمان، مؤسسة عبد الحميد شومان،1987م، ج3، ص70.

30) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج3، ص13.

31) ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن المكارم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت630هـ)، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه، محمد الدقاق، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993م، ج10، ص92.

32) ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت744هـ)، البداية والنهاية، خرج أحاديثه، أحمد شعبان، محمد عيادي، القاهرة، مكتبة الصفا، 2002م، ج12، ص259؛ العيني، أبو محمد بدر الدين العيني الحنفي محمود بن أحمد بن موسى الحافظ (ت855هـ)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، العصر الأيوبي، تحقيق ودراسة، محمود رزق، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، 2003م، ج1، ص277.

33) ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (ت749هـ)، تاريخ ابن الوردي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1996م، ج2، ص86.

34) أبو شامة، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي (ت665هـ)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجري، المعروف بالذيل على الروضتين، وضع حواشيه وعلق عليه، إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، 2002م، ص143.

35) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص442.

في بعض مناطق بلاد الشام وتحديداً المناطق الشمالية والشرقية وحلب سنة 624هـ/ 1227م، فقلّت السلع الغذائية، وشهدت أسعار القمح والشعير ارتفاعاً ملحوظاً، حيث بلغت الحنطة في حلب كل مكوكين بدينار، والشعير كل ثلاثة مكاكيك بدينار[36].

وشهد عاما 628_629هـ/ 1230_1231م، انحباساً للمطر في معظم الشام، فغلت الأسعار، وكان أشدها غلاءً في حلب[37]، وفي عام 639هـ/ 1241م، انقطع المطر في الشام كلها، ونقصت الأنهار والآبار، وهلك زرع وثمار كثيرة، وشهدت عموم الشام ارتفاعاً في الأسعار[38].

شدة الأمطار والسيول والبرد والثلج:

سجلت المصادر حالات من السيول والفيضانات في ثماني سنوات من الحكم الأيوبي، ولم تكن السيول والفيضانات تعم كافة المناطق، فقد تشهد بعض المناطق حالات من شدة الأمطار، أو حالة من قلة الأمطار، مثلما حدث في عام 621هـ/ 1224م، حيث شهدت بعض المناطق حدوث جفاف، في حين كانت بعض المناطق الأخرى كحلب تشهد حالة فريدة من كثافة سقوط الأمطار والبرد[39]، وذلك بسبب التنوع المناخي والتضاريسي لبلاد الشام.

وأجثم المطر بشكل كثيف في جنوب الشام، وتحديداً في منطقة آيلة سنة 577هـ /1181م، وأحدث أضراراً كبيرة فيها[40]، وتعرضت أجزاء من بلاد الشام لسقوط كثيف من الأمطار والبرد في عامي 589_590هـ/ 1193_1194م، وسجلت نابلس وحلب أكثر المناطق هطولاً وتضرراً، ووزنت حبة البرد فيهما بمائة وخمسين درهماً؛ أي ما يساوي تقريباً 333غم[41]، فأهلك ضياعاً كثيرة، وأهلكت الطيور والدواب والشجر، وتضررت زراعة القطن، وعطلت الرحى، وغرقت الأبقار والغنم والجمال، وغرقت جماعة من الناس، وخربت ثلاثمائة دار في حلب، وفاضت الأودية، ورافق ذلك انتشار مرض في الجمال، حتى نفق أكثر من ألف جمل في الشام[42]، وفي القدس سادت حالة غلاء فاحش، بفعل انقطاع الطرق بينها وبين الساحل؛ نظراً لسوء الأحوال الجوية، فأدى إلى انقطاع الجلب لها[43].

وكان لاشتداد الأمطار سنة 596هـ/1199م أثره على حركة التجارة لدمشق، فأغرقت الأسواق وانقطعت الطرق، فقلت الأقوات وعدمت، وشهدت الأسعار ارتفاعاً كبيراً[44]، وتهدمت أسوار قلعة حلب وخربت أسواقها لشدة البرد الذي ضرب المدينة عام 621هـ/1224م، فشهدت البلاد حالة من غلاء الأسعار[45]، وفي أواخر عام 623هـ/ 1226م، نزل برد كبير وزن أكثر من مائتي

36) المصدر السابق، ج10، ص475.

37) ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة (ت660هـ)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، وضع حواشيه، خليل منصور، بيروت، دار الكتب العلمية، 1996م، ص478.

38) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص262.

39) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص442.

40) المقريزي، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي ابن عبد القادر بن محمد العبيدي (ت 845هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997م، ج1، ص187.

41) على اعتبار أن وزن الدرهم الأيوبي في عام 589هـ يساوي 2,220غم. ابن بعرة، منصور بن بعرة الذهبي الكاملي (ت1135هـ)، كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق، عبد الرحمن فهمي، الجمهورية العربية المتحدة، دار إحياء التراث الإسلامي، 1966م، ص130.

42) العماد الأصفهاني، عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني (ت597هـ)، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق، محمد الطعاني، إربد، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، 2011م، ص442_445.

43) العماد الأصفهاني، عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني (ت597هـ)، الفتح القسي في الفتح القدسي، حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس، قدم له ووضع حواشيه وعلق عليه، إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003م، ص337_338.

44) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق، جمال الشيال، حسنين ربيع، سعيد عاشور، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، 1957م، ج3، ص107.

45) ابن العديم، زبدة الحلب، ص469.

درهم_ ما يعادل 444غم_ في شمال وشرق الشام، فأهلك الكثير من الحيوانات والمزروعات، فعُدم اللحم، وإن وجد كان مرتفعاً جداً، وبلغت الحنطة كل مكوكين بدينار، والشعير كل ثلاثة مكاكيك بدينار[46].

وتعرضت الشام عام 625هـ/1227م لسقوط الثلج في شهر أذار مرتين متتاليتين، فتضررت الثمار، خاصة التي كانت تشهد بداية خروج زهرها كاللوز والمشمش والإجاص والسفرجل، وشهدت تلك الثمار ارتفاعاً في أسعارها[47]، وجاء سيل كبير في دمشق سنة 634هـ/1236م، وخربت خاناتها، والدور التي بالعقيبة من شمالي باب الفرج، ومات خلق عظيم، وخسر الناس من أملاكهم الشيء الكثير، وحدث سيل عظيم في كل بلاد الشام في سنة 637هـ/1239م، وتهدمت مبان وخربت أسواق في عدة مدن شامية، وأُتلفت الكثير من البضائع، وتضرر قطاع الزراعة، وشهدت أسعار المنتجات الزراعية ارتفاعاً ملحوظاً[48]، وتعرضت دمشق لفيضان آخر سنة641هـ/1243م[49]، وتكرر السيل في دمشق سنة 653هـ/ 1255م، أغرق عدّة دور وخربت أسواقها، وبلغ ارتفاع السيل ستة أذرع وزيادة[50].

وشهدت حلب سنة 650هـ/ 1252م حدوث حريق هائل، قيل إنها بسبب ارتفاع درجة الحرارة، فيما اتهم آخرون الإسماعلية أو الفرنجة بفعل ذلك، فأحرقت الأسواق والغلال، واحترق أكثر من ستمائة منزل[51]، وكانت الإسماعلية قد أقدمت على هذا الفعل سابقاً عام 576هـ/ 1180م، فأحرقوا أسواق حلب، وعانى أهلها من جراء ذلك من الافتقار، وغلاء الأسعار[52].

ومن الكوارث الطبيعية الأخرى التي أشار إليها المؤرخون ما كان يصيب المحاصيل الزراعية من هبوب الريح، التي كانت تلحق أضراراً كبيرة في قطاع الزراعة والتجارة، وكانت تشكل عائقا طبيعياً للقوافل والسفن التجارية، ما أدى إلى ارتفاع أسعار المنتجات الزراعية، ففي عام 586هـ/ 1190م، أغرقت الرياح سبع سفن تجارية كانت متجهة من مصر إلى الشام محملة بالبضائع والسلع الغذائية، وتكرر ذلك عام 602هـ/1205م، فأغرقت تسع سفن تجارية شامية[53].

الجراد والفئران:

تعرضت الشام خلال فترة حكم الأيوبيين (570_658هـ/1174_1260م) لعادية الفئران والجراد خمس مرات، ألحقت خلالها الضرر بالمزروعات والثمار، وترتب على ذلك خسائر مالية كبيرة، مع ارتفاع أسعار الحبوب والفواكه والخضروات، فقد هاجمت الفئران سنة571هـ/ 1175م حران وغوطة دمشق، وفتكت بغلال القمح والشعير المخزنة آنذاك، فألحقت بالفلاحين خسائر كبيرة، ترتب عليها ارتفاع أسعار القمح والشعير[54].

---

46) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص471.

47) المصدر السابق، ج10، ص475.

48) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت748هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق، عمر التدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، 1993م، حوادث 631_640 هـ، ص18، 37.

49) المصدر السابق، حوادث 641_650هـ، ص6.

50) المصدر السابق، حوادث 651_ 660هـ، ص16.

51) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص478.

52) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج3، ص36.

53) المقريزي، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي ابن عبد القادر بن محمد العبيدي (ت845هـ)، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ط1، دراسة وتحقيق، كرم فرحات، القاهرة، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، 2007م، ص62_63.

54) ابن الفرات، شمس الدين بن ناصر الدبن محمد بن عبد الرحيم بن علي بن الحسن المصري (ت807هـ)، الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك، المعروف بتاريخ ابن الفرات، حققه وعلق عليه، حسن الشماع، البصرة، د.ن، 1970م، ج4، م1، ص243؛ ابن أيبك الدواداري، أبي بكر بن عبد الله بن أيبك (ت ق8هـ)، كنز الدرر وجامع الغرر، الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق، سعيد عاشور، القاهرة، مكتبة عيسى الحلبي، 1972م، ج7، ص122، 159.

وتكررت عادية الفأر عام 658_659هـ/ 1260م على منطقة حوران والجولان وغوطة دمشق أيام البيادر، وقدّر ما نفق من الغلال بثلاثمائة ألف غرارة من القمح؛ فاستفحل سعره، حتى بيعت الغرارة بدمشق بأربعمائة درهم، وبيع المكوك في حلب وحماة بأربعمائة درهم، وسجلت باقي السلع ارتفاعاً في أسعارها، حيث بلغ رطل اللحم في دمشق ثلاثين درهماً[55].

واجتاح الشام جراد كبير في عام 619هـ/ 1222م، ، فأهلك الزرع والشجر والثمر والنخيل، فساد الغلاء في معظم الشام؛ لقلة الأقوات والغلال[56]، وداهم مجدداً الحقول والبساتين والمزارع سنة 620هـ/ 1223م، فقضى على الكثير من الغلال[57]، وتكررت مداهمته سنة 622هـ/ 1225م، فأباد المزروعات والغلال، وشهدت الشام غلاءً شديداً أضر بالعامة والتجار[58]، حيث بيع رطل الشيرج (زيت السمسم) في حلب والشمال الشرقي لبلاد الشام بقراطين[59]، بعد أن كان بنصف قيراط، وبيع في حالات الرخص كل ستين رطلاً بدينار، وبيع السلق والجزر كل خمسة أرطال بدرهم، وبيع البنفسج كل ستة أرطال بدرهم، وبيع في مناطق أخرى كل سبعة أرطال بدرهم، وبيع المكوك والثلث من الحنطة بدينار، والملح كل مكوك بعشرة دراهم، وكان يباع في الظروف العادية المكوك بدرهم، وكان الأرز في أيام الرخاء يباع باثني عشر درهم للمكوك، حتى أصبح المكوك بخمسين درهماً، وارتفعت أسعار التمر من خمسة أرطال بقيراط إلى رطلين بقيراط، وشهدت أسعار السكر بأنواعه ارتفاعاً، حيث ارتفع سعر السكر الأبيض، إذ كان يباع الرطل منه بدرهمين، فصار الرطل بثلاثة درهم وربع، أما السكر الأسود، فقد بيع وقت الغلاء بثلاثة دراهم ونصف للرطل، بعد أن كان الرطل منه بدرهم، وسبب ارتفاعه أنه وصف كدواء لكثير من الأمراض[60]، وقد استمرت حالة الغلاء هذه للعام الذي يليه؛ بسبب استمرار انتشار الجراد[61].

الزلازل:

تعرف الزلازل على أنها هزات سريعة متلاحقة وقصيرة المدى تتعرض لها القشرة الأرضية، وذلك من خلال فترات متقطعة؛ نتيجة للاضطرابات الباطنية، ويتبعها احتكاك الأجسام الصخرية التي يتكون منها الغلاف الخارجي[62]، ويفسر كثرة حدوث الزلازل في منطقة بلاد الشام؛ لوقوعها ضمن ما يعرف بـ "نطاق الأخدود الأفريقي العظيم"، الذي يعد من نقاط تمركز النشاط الزلزالي على المستوى العالمي[63].

وخلال الفترة الأيوبية منيت بلاد الشام بالعديد من الهزات الأرضية، وصفت بعضها بالمدمرة، تكبدت من جرائها خسائر مادية وبشرية كبيرة، بدأت تلك الهزات مع بداية الفترة الأيوبية الناشئة التي كانت تعصف بها مخاطر من كافة الاتجاهات، فقد ذكر ابن كثير أن بلاد الشام تعرضت في عام 575هـ/ 1179م، لهزة أرضية، تهدمت من جرائها قلاع وقرى، ومات خلق عظيم، وأصاب الناس غلاء شديد[64]، وتعرضت بعلبك عام 581هـ/1189م لزلزال، فتضررت أسواقها ومبانيها، ولحق بالناس ضررٌ كبير[65].

55) ابن واصل، مفرج الكروب، ج6، ص315، 322؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص525.

56) العيني، عقد الجمان، ج4، ص84؛ الغساني، الأشرف إسماعيل بن العباس (ت803هـ)، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق، شاكر عبد المنعم، بغداد، دار البيان، 1975م، ص395.

57) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص437.

58) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص92؛ العيني، عقد الجمان، ج4، ص124.

59) القيراط جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الدينار، على هذا فإن وزنه يصل 0.195غم. هنتس، المكاييل، ص44.

60) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص458.

61) المصدر السابق، ج10، ص471.

62) Flint, R.F, Skinner, B, J, Physical Geology, London, John Wiley, 1974, p329.

63) رضوان، طه عبد العليم، في الجغرافية العامة، القاهرة، مكتبة الانجلو، 1984م، ص373.

64) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص263.

65) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص203.

وكان زلزال سنة 597هـ/ 1201م مدمراً[66]، يصفه ابن الأثير بقوله: " وفي شعبان منها زلزلت الأرض بالموصل وديار الجزيرة، والشام ومصر وغيرها، فأثرت الشام آثار قبيحة، وخربت كثيرٌ من الدور بدمشق وحمص وحماة، وانخسفت قرية من قرى بصرى، وأثرت في الساحل الشامي أثراً كثيراً، واستولى الخراب على طرابلس وصور وعكا ونابلس وغيرها، ووصلت الزلزلة بلد الروم"[67].

أحدث الزلزال أثاراً بالغة وتحديداً على الجانب الاقتصادي، فقد تعطلت التجارة الخارجية والداخلية؛ نتيجة الخراب الذي أحدثه في منطقة الساحل الشامي، وتدمير الأسواق في معظم مدن الشام[68]، إلى جانب الأثار على البنية التحتية للمدن، ففي دمشق هدمت معظم أسواقها، وأجزاء كبيرة من الجامع الأموي، وتهدم البيمارستان النوري، وهُدمت دورٌ فيها، وهرب الناس إلى الميادين، وتهدمت بانياس وهونين وتبنين[69]، وتهدمت قلاع في بعلبك، ووصل الخراب إلى نابلس وعكا ويافا وحمص وحماة وحلب، وجميع قلاع الساحل، وقذف بالمراكب إلى الساحل[70]، أما على صعيد الخسائر البشرية، فقد مات في نابلس وحدها تحت الهدم ثلاثون ألفاً، وأحصي من هلك بالشام كلها فبلغ ألف ألف إنسان (مليون)[71].

وضرب الزلزال مجدداً الشام عام 598هـ/ 1202م، وامتد على مدار يومين 26_27 شعبان/ 21_22 أيار، فتهدمت الكثير من المنازل في دمشق، وتأثرت حمص ونابلس بشكل كبير[72]، وتعرضت الشام عام 600هـ/ 1204م لهزة أرضية عمت أكثر المدن الشامية[73]، وكانت أكثر المناطق تضرراً مدينة صور[74]، وشهد عام 608هـ/ 1212م زلزالاً ضرب الكرك والشوبك، فتهدمت أبراج من قلاعهما ومات خلق كثير تحت الهدم[75].

وممن وصفوا الزلازل في بلاد الشام، عبد اللطيف البغدادي، وقد عاين أثارها، فيصف زلزال عام 589هـ/1202م:" أنها حركت في ساعة واحدة طابقة من قوص إلى دمياط، والإسكندرية ثم بلاد الساحل بأسرها، والشام طولاً وعرضاً، وتعفت بلاد كثيرة، بحيث لم يبق لها أثر وهلك من الناس خلق عظيم وأمم لا تحصى، ولا أعرف في الشام بلداً أحسن سلامة من القدس فإنها لم تنك فيه إلا ما لا بال، وكانت نكاية الزلزلة ببلاد الفرنج أكثر منها في بلاد الإسلام كثيراً، وسمعنا أن الزلزلة وصلت إلى أخلاط وتخومها، وإلى

66) ابن نظيف الحموي، أبي الفضائل محمد بن علي بن نظيف(ت630هـ)، التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العيد دودو، مراجعة عدنان درويش، دمشق، مطبعة الحجاز، 1981م، ص25؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري(ت911هـ)، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تحقيق، محمد كمال الدين، بيروت، عالم الكتب، 1987م، ص195، 197.

67) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص275_276.

68) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص25.

69) سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر يوسف قزأوغلي بن عبد الله (ت654هـ)، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق، إبراهيم الزيبق وآخرون، دمشق، دار الرسالة، 2013م، ج22، ص91؛ أبو الفداء، المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت 732هـ)، المختصر في أخبار البشر أو تاريخ أبي الفداء، ط1، علق عليه ووضع حواشيه، محمود ديوب، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997م، ج2، ص190.

70) ابن الساعي، أبو طالب علي أنجب بن عثمان بن عبد الله (ت674هـ)، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السر، تحقيق، مصطفى جواد، بغداد، المطبعة السريانية، 1934م، ج9، ص56؛ ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر المغربي (ت بعد 926هـ)، صدق الأخبار، أو تاريخ ابن سباط، تحقيق، عمر تدمري، طرابلس، مطبعة جروس برس، 1993م، ج1، ص234.

71) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص25؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص267.

72) ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العكري الحنبلي(ت1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق، محمود الأرناؤوط، دمشق، دار ابن كثير، 1989م، ج5، ص48.

73) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص196؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج5، م1، ص16.

74) ابن سباط، تاريخ ابن سباط، ج1، ص237؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص120.

75) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ج1، ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص54.

جزيرة قبرص، وأن البحر ارتطم وتموج وتشوهت مناظره، فانفرق في مواضع وصارت فرقه كالأطواد وعادت المراكب على الأرض، وقذف سمكاً كثيراً على ساحله"[76].

وقد أورد عبد الطيف البغدادي رسالتين، هما بمثابة وثيقتين بالغتي الأهمية من حماة ودمشق إلى السلطان في مصر، بيّن فيهما آثار زلزال عام 589هـ/1202م، أما الرسالة الأولى الصادرة من حماة، يقول مرسلها: " ولما كان سحرة يوم الإثنين السادس والعشرين من شعبان حدثت الزلزلة، وكادت الأرض تسير سيرا والجبال تمور مورا، وما ظن أحد من الخلق إلا أنها زلزلة الساعة، وأتت دفعتين في ذلك الوقت، أما الدفعة الأولى فاستمرت مقدار ساعة أو تزيد عليها، وأما الثانية فكانت دونها ولكن أشد منها وتأثر منها بعض القلاع فأولها قلعة حماة مع إتقانها وعمارتها، وبارين مع اكتنازها ولطافتها، وبعلبك مع قوتها ووثاقتها، ولم يرد عن البلاد الشاسعة والقلاع النازحة"[77].

أما الرسالة الثانية فموجهة من دمشق: "المملوك ينهي حدوث زلزلة ليلة الإثنين سادس وعشرين شعبان وقت انفجار الفجر وأقامت مدة، قال بعض الأصحاب :أنها مقدار ما قرأ سورة الكهف، وذكر بعض المشايخ بدمشق أنه لم يشاهد مثلها فيما تقدم، ومما أثرت في البلد سقوط ست عشرة شرفة من الجامع وإحدى المآذن وتشقق أُخَر، وانخساف الكلاسة ومات فيها رجلان، ورجل آخر على باب جيرون وتشقق بالجامع مواضع كثيرة وسقط بالبلد عدة دور، وذكر عن بلاد المسلمين أن بانياس سقط بعضها وصفد، وكذلك تبنين ونابلس لم يبق لها جدار قائم سوى حارة السمرة، وأما بيت جن فلم يبق منها إلا الأساس والجدران وقد أتى عليها الخسف وكذلك أكثر بلاد حوران غارت لا يعرف لبلد منها موضع يقال فيه هذه القرية الفلانية، ويقال أن عكا سقط أكثرها، وأما جبل لبنان فهو موضع يدخل الناس إليه بين جبلين يجمع منه الرياس الأخضر، فيقال أن الجبلين انطبقا على من بينهما وكانت عدتهم تناهز مائتي رجل وقد أكثر الناس في حديثها، وأقامت بعد ذلك أربعة أيام في النهار والليل، ونسأل الله لطفه وتدبيره وهو حسبنا ونعم الوكيل"[78].

تركت تلك الزلازل أثاراً جسيمة على كافة الأصعدة، أبرزها على المجال الاقتصادي، فقد تصدر قطاع الزراعة المجال الأكثر تضرراً من بين القطاعات، حيث تعرضت المحاصيل الزراعية للتدمير، وقتل الكثير من الفلاحين، وهرب الكثير منهم إلى الأقاليم الأخرى، وخربت الطواحين والقنوات والرحى، وفنيت الكثير من الحيوانات، فتعطل الإنتاج الزراعي، وانعكس ذلك على المجالين الصناعي والتجاري، ففي المجال الصناعي، تعطلت الصناعات الحرفية، وفقد القطاع نسبة كبيرة من الأيدي العاملة، أما مجال التجارة، فلم يسلم من الأذى، حيث توقفت حركة التجارة، نتيجة الخراب الذي شهدته مدن الساحل والطرق التجارية، والدمار الذي لحق الأسواق، فيما تأثرت القوة الشرائية للمستهلكين، وتبعها ذلك نقص الأقوات والغلال، وشهدت الأسعار ارتفاعاً تضرر منه العامة بشكل كبير، ونجم عن الزلازل ارتفاع الطلب على بعض الصناعات والأيدي العاملة، كالأطباء، والبناءين وعمال التكليس* وعمال المياومة؛ لإزالة الأنقاض والأبنية المتهدمة؛ لإعادة تشييدها[79]، وازداد الطلب على الخيام؛ بديلاً عن المساكن المهدمة، وانتشرت المساكن الخشبية؛ لرخص تكلفتها، وقلة الآثار التي يمكن أن تحدث في حالة وقوع الزلازل مرة أخرى[80].

الأمراض والأوبئة:

76) عبد اللطيف البغدادي، موفق الدين ابن اللباد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد (ت629هـ)، رحلة عبد اللطيف البغدادي، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث والمعاينة بأرض مصر، إشراف، عبد الرحمن الشيخ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م، ص146_147.

77) المصدر السابق، ص147_148.

78) المصدر السابق، ص148_149.

*) التكليس: حمل الحجارة، أو تمليس الجدران، أو طلاء الجدران. الرازي، أحمد بن فارس بن زكرياء(ت395هـ)، دراسة وتحقيق، زهير سلطان، بيروت، دار الرسالة، 1986م، ج1، ص770؛ الحميري، نشوان بن سعيد اليمني، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق، حسين العمري، مطهر الرياني، يوسف عبد الله، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1990م، ج9، ص5889.

79) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص184.

80) السيوطي، كشف الصلصلة، ص106.

شكلت الأمراض والأوبئة في الفترة الأيوبية ظاهرة مثيرة للاهتمام؛ لما لها من آثار وتبعات على كافة المجالات، خاصة على المجال الاقتصادي والاجتماعي. ويعود سبب انتشار الأمراض والأوبئة في الفترة الأيوبية، إلى عوامل طبيعية، كالمجاعات وانتشار الحشرات والآفات الزراعية، وعوامل بشرية؛ تتمثل في تلوث الطعام والشراب، وقلة الخبرة الصحية وانعدام الوقاية، والحروب والأزمات السياسية[81].

ومن الأوبئة التي فتكت بالناس في الفترة الأيوبية، مرض الطاعون*، حيث عصف بالشام عدة مرات، ففي عام 589هـ/ 1189م ظهر في حلب وحمص، وأصاب الكثير من أهلها، وكان سبباً في هلاكهم[82]، وكذلك في عام 629هـ/ 1231م ظهر في حلب مجدداً[83]، ويبدو من خلال الواقعتين، أن الدولة اتخذت الحجر الصحي لتلك المدن، إذ لم ترد أي إشارة في المصادر العربية ولا حتى الفرنجية انتشار لهذا المرض في مدن أخرى. وظهر المرض مجدداً في عام 656هـ/ 1259م، وتوافق ذلك بالاجتياح المغولي للشام، وكان أكثر انتشاراً لمعظم المدن الشامية، فيما كانت دمشق وحلب الأكثر تضرراً؛ نظراً للكثافة السكانية، وذكر المقريزي أنه كان يموت في حلب باليوم الواحد ألف ومائتا إنسان[84]، حتى لم يكد يوجد مغسل للموتى، وتسبب في غلاء معظم السلع الغذائية، فبيع الفراخ او الفراريج الموصي بها من الأطباء الأيوبيين للمرضى، في دمشق بدرهمين فأكثر، وفي حلب بعشرة دراهم، وبيع الرطل من التمر الهندي بستين درهماً؛ لكثرة الطلب عليه من المرضى، كما بيعت الحزة الواحدة من البطيخ الأخضر بدرهم[85].

ورجت بلاد الشام بمرض الكوليرا*، وقد ارتبط ظهوره بانتشار القتلى بين صفوف الجيشين الإسلامي والفرنجي، فقد ظهر أول مرة في الفترة الأيوبية، بعد حصار الكرك سنة 580هـ/1184م[86]، وبعد معركة حطين سنة 583هـ/1187م، حيث بلغ عدد قتلى الفرنج من معركة حطين وحدها أكثر من ثلاثين ألفاً[87]، وأثناء حصار عكا عام 585هـ/ 1189م، حيث نتنت جيف القتلى التي خلفتها المعارك التي دارت بين الطرفين، وتسممت المياه وتلوث الهواء، وانتشر المرض بين صفوف الجيشين[88]، وكان الملك الأشرف بن العادل صاحب دمشق قد توفي بسببه سنة 635هـ/1237م[89].

81) الصاعدي، هيفة صالح، الأوبئة والأمراض في العصرين الأيوبي والمملوكي في مصر والشام، رسالة ماجستير غير منشورة، المملكة العربية السعودية، جامعة طيبة، 2012م، ص17_46،44_68.

*) مرض الطاعون: نوع من الوباء، وهو عند أهل الطب ورم رديء قتال، يخرج معه تلهب شديد مؤلم يتجاوز المقدار في ذلك، ويصير ما حوله في الأكثر أسود أو أخضر، أو أكمد، ويؤول أمره إلى التقرح سريعاً، وفي الأكثر يحدث في في الإبط، وخلف الأذن. ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنبلي الدمشقي(ت751هـ)، الطب النبوي، تحقيق، حامد الطاهر، القاهرة، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع، 2004م، ص28.

82) الأصفهاني، البستان الجامع، ص439.

83) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص464.

84) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص499.

85) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص304؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت764هـ)، تحفة ذوي الألباب، تحقيق، إحسان خلوصي، زهير حمدان، بيروت، دار صادر، 1990م، ص421.

*) مرض الكوليرا: مرض وبائي معد يصيب الإنسان نتيجة تناول ماء فاسد أو ملوث، أو تناول أطعمة مغسولة بهذا الماء، وأعراضه تظهر بوضوح على المصاب، وتتمثل في القيء والإسهال والإحساس الشديد بالعطش وانخفاض درجة حرارة الجسم، وفي الحالات المتقدمة، تزرق الشفاه والأظافر وتغور العيون، ويزداد تصبب عرقه، ويكون ذلك نذيراً بقرب الوفاة. الديواني، مصطفى، حديث في الطب، القاهرة، دار الكاتب العربي، 1969م، ص278_279.

86) الصوري، وليم، الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق، حسن حبشي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995م، ج4، ص319_323.

87) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص186_187؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص343_344.

88) ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (ت632هـ)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، سيرة صلاح الدين، تحقيق، جمال الشيال، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1994م، ص114.

89) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت748هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق، مجموعة من المحققين، إشراف، شعيب الأرناؤوط بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985م، ج22، ص126.

وعرفت الشام مرض السرسام*، الذي أودى بحياة الكثيرين في الشام سنة 574هـ/ 1178م، واشتد في العام التالي، أثناء حصار قلعة بيت الأحزان[90]، واستمر مدة عامين، ولم تذكر المصادر إحصائيات حول عدد الوفيات، إلا أنها وصفتها بالضخمة، حتى أن الناس عجزت عن دفن الموتى[91]، وفشا مرض الجذام*بين القبائل العربية الشامية سنة 577هـ/ 1181م، فأمر السلطان صلاح الدين بفرض الإقامة عليهم في المنطقة التي أصيبوا فيها بالمرض[92].

ساهمت تلك الأمراض في ارتفاع إجرة الأطباء، وازداد الطلب على الأدوية والعقاقير، واستغل ذلك العطارون[93]، حيث بيعت شربة من البنفسج مدقوقاً مع السكر والماء الحار ما بين ثلاثة دراهم وسبعة دراهم؛ لتخفيف آلام الصداع ومشاكل الأمعاء، وبيعت شربة من سوسن دمشق، بثلاثة دراهم؛ استخدم لتليين قصبة الرئة وتصفية الصوت ولمنع حرقة البول، واستخدم البابونج، لمعالجة آلام الصداع وتفتيت الحصى، وكانت الشربة منه بثمانية دراهم، واستخدم نيلوفر دمشق، ويسمى حب العروس، كان لتسكين الآلام والشربة منه بدرهم، والقرطم ومنه الحار والرطب، يسهل البلغم وينقي الصوت، والشربة منه خمسة دراهم[94].

الظروف السياسية والحربية:

استمرار الحروب الفرنجية:

اتخذ شكل الصراع في الشام بين الطرفين الأيوبي والفرنجي أشكالاً متنوعة، منها التنافس الاقتصادي، فقد سعت القوى الفرنجية السيطرة على البنى الاقتصادية الشامية، وذلك من خلال السيطرة على المناطق الزراعية وإغراق الأسواق بالمنتجات الغربية، والتحكم بالتجارة الداخلية والخارجية للبلاد[95].

أبدى الفرنجة اهتمامهم بالمناطق ذات الأهمية الاستراتيجية والجغرافية، التي من شأنها أن تحقق لهم السيطرة على التجارة الشامية، وهذا ما يفسر اهتمامهم بمنطقة الساحل؛ كونها الشريان الرئيس للتجارة الخارجية؛ مما جعلهم يتمسكون بعكا[96]، وهاجم الأوروبيون منطقة ما وراء الأردن، وجنوبي البحر الميت وصولاً إلى منطقة العقبة "وادي عربة"؛ كونها حلقة الوصل بين الشام ومصر والحجاز[97].

---

*) السرسام: مرض في حجاب الدماغ تحدث حمى دائمة، يؤدي أحيانا إلى النسيان، وهو الالتهاب السحائي. ابن سينا، أبو علي شرف الملك الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي البخاري (ت428هـ)، القانون في الطب، حققه ووضع حواشيه، مجمد أمين الضناوي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1999م، ج2، ص76_81.

90) ابن شاهنشاه، تقي الدين المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي (ت617هـ)، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق، حسن حبشي، القاهرة، عالم الكتب، د.ت، ص24.

91) الأصفهاني، الفتح القسي، ص316؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص92.

*) مرض الجذام: هو مرض مزمن يسببه نوع من البكتيريا يسمى بالمنفطرة الجذامية، يؤثر المرض بشكل أساسي على الجلد والجهاز المخاطي للجهاز التنفسي العلوي والعينين. ابن سينا، القانون في الطب، ج3، ص140.

92) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص185.

93) العيني، عقد الجمان، ج1، ص 183.

94) البدري، أبي البقاء عبد الله بن محمد المصري الشافعي (ت نحو 894)، نزهة الأنام في محاسن الشام، بيروت، دار الرائد العربي، 1980م ص79، 84_85، 91، 103، 182.

95) هايد، ف، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة، أحمد رضا، مراجعة وتقديم، عز الدين فودة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م، ج1، ص184.

96) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص258؛ ابن الأثير، الكامل، ج9، ص121.

97) حسين، حسن عبد الوهاب، مصر وأمن البحر الأحمر في عصر الحروب الصليبية، بحث منشور ضمن كتاب "مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية"، سلسلة دراسات في تاريخ الحركة الصليبية، عدد3، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1997م، ص194.

وشهد عام 583هـ/1187م، حالة غلاء في الغلّات (القمح والشعير) في دمشق؛ نتيجة انقطاع الامتدادات بين مصر والشام، بعد تفاقم الصراع بين الفرنجة والمسلمين، التي توجت بانتصار المسلمين في معركة حطين، وفرض حصار على بيت المقدس، التي شهدت رخصاً بالأسعار، حيث باع الفرنجة ممتلكاتهم وغلاتهم بأبخس الأثمان، فباعوا بأقل من دينار كل ما يساوي عشرة دنانير[98].

وعانت الشام في الأعوام 586_ 588هـ/ 1190_1192م من ارتفاع وتيرة الحرب بين الأيوبيين والفرنجة، وخلالها تعطلت التجارة الخارجية، وانكمشت التجارة الداخلية، فقلت الأقوات، فارتفعت الأسعار مقابل ذلك، وكانت مصر تشهد حالة من رخص الأسعار؛ نتيجة لعدم مقدرتها تصديرها إلى الخارج وتحديداً الشام، أثر تعطل الطريق التجاري بينهما[99].

وقد لجأ الفرنجة إلى سياسة حصار المدن[100]، ففرضوا في عام 586هـ/ 1190م حصاراً على عكا والساحل الشامي الجنوبي، ودام الحصار عدة أشهر؛ فاشتد الغلاء بهذه المناطق، حتى وصلت الغرارة من القمح أكثر من مائة دينار صوري[101]، وفي الفترة الواقعة بين عامي 602_604هـ/ 1205_1207م، قام الفرنجة بعدة غارات بقيادة ابن ليون الأرمني على حلب ونواحيها، وحاصر حمص، فشهدت تلك المناطق غلاءً في الأسعار[102]، خاصة الفواكه، فقد بيع رطل الفواكه بأربعين درهماً[103]، وفي عام 614هـ/ 1218م نقض الفرنجة الصلح الذي أبرم مع السلطان العادل، وتتابعت الإمدادات من روما نحو عكا؛ لإعادة احتلال القدس، فنزلوا على بيسان ونهبوا وأسروا وغنموا، ثم عادوا إلى مرج عكا، فأنكلوا في المسلمين أعظم نكاية، وامتلأت أيديهم بالأسرى والسبي والغنائم، وأحرقوا الكثير من الزرع والبساتين، وسيطروا على معظم الطرق التجارية المؤدية إلى العمق الشامي، فشهدت كافة أنحاء الشام ارتفاعاً في الأسعار[104].

وشهد الساحل الشامي الجنوبي رخصاً في الأسعار في عام 587هـ/1191م ؛ بسبب تخريب معظم مدن الساحل الشامي الجنوبي كعسقلان وقيسارية واللد والرملة، وكذلك دمرت طبرية وبيسان وقرى في مرج ابن عامر من السلطان صلاح الدين وقادته؛ خوفاً من أن يستحكم فيها الفرنجة، فخربت الأسواق، ودمرت البساتين، وطمرت الآبار، وأُخرج الفلاحون من أراضيهم، وتم نقلهم إلى مصر والكرك ودمشق، وباع الناس أقمشتهم وأمتعتهم وبضاعتهم بالثمن البخس، ونهبت الأغنام والأبقار[105]، وفي عام 593هـ/ 1197م، خرب الملك الظاهر مدينة اللاذقية، وأخرج أهلها، عندما علم بتوجه الصليبيين لها[106].

كما خرب الملك المعظم عيسى أسوار وأبراج القدس سنة 616هـ/ 1220م[107]؛ فاضطربت أحوال الناس، وخرجت النساء والبنات إلى الصخرة المشرفة فمزقن ثيابهن وقطعن شعرهن، وهرب الناس إلى مصر والكرك وتركوا أموالهم وأثقالهم، ومات خلق عظيم من العطش والجوع، ونهبت الأموال التي بقيت في القدس، وبيعت السلع والأمتعة بأبخس الأثمان، حيث بيع قنطار الزيت بعشرة دراهم، ورطل النحاس بنصف درهم[108].

98) الأصفهاني، الفتح القسي، ص50، 88.
99) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص221.
100) الأصفهاني، الفتح القسي، ص237؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ص128.
101) الأصفهاني، الفتح القسي، 261؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص198.
102) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث 601_610هـ، ص11، 12، 20.
103) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج22، ص155.
104) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص307.
105) الأصفهاني، البستان الجامع، ص430؛ ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ص160.
106) ابن العديم، زبدة الحلب، ص436.
107) ابن العديم، زبدة الحلب، ص464.
108) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج22، ص237؛ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص175.

واضطرت القوتان الأيوبية والفرنجية إلى إبرام المعاهدات، التي أثرت على الناحية الاقتصادية، فقد منحت معاهدة الرملة 588هـ/1192م، حرية التجارة بين الشام وأوروبا، فهبطت الأسعار في الشام، لوجود المنافس والسلع البديلة، وعودة التجارة مع مصر[109]، ومع أن معاهدة يافا 626هـ/1228م التي أبرمت مع الكامل، منحت حرية التجارة بين الطرفين، إلا أنها مكنت الفرنجة من السيطرة على أهم مفاتيح تجارة البحر المتوسط، ففرضوا المكوس والجمارك، وزجوا بالعملة الفرنجية في الأسواق، وأصبحت تزاحم العملات الإسلامية؛ ما أدى إلى رفع سعر الكثير من السلع، خاصة التي كانت تستورد من الخارج[110].

الخلافات والنزاعات داخل البيت الأيوبي:

ما إن توفي السلطان صلاح الدين الأيوبي عام 589هـ/1193م، حتى دبّ الخلاف والنزاع بين ورثته من أبنائه وأخيه العادل، وكان صلاح الدين قد قسم الممالك بين أبنائه مع منح حاكم مصر لقب السلطنة، بحيث تكون باقي المناطق تابعة لحاكمها، فقد أعطى مصر لابنه الملك العزيز عثمان، أما دمشق فكانت من نصيب الأفضل، وحلب لابنه الظاهر، والمناطق الشرقية والكرك والشوبك لأخيه العادل، وحماة لأبناء أخيه شاهنشاه، وبعلبك لأبناء أخيه فرخشاه، أما حمص فكانت لأبناء عمه شيركوه[111]، على أن تلك التقسيمات لم تكن لتوقف النزاع بين الورثة، خاصة أن طموحات البعض كانت تتجاوز حدود منطقته.

تعرضت دمشق ما بين عامي 590_ 592هـ/ 1194_1196م، للحصار ثلاث مرات من العزيز حاكم مصر؛ بسبب سوء إدارة الأفضل لها، ومحاولة الأخير الاستئثار بالحكم، إلى جانب دور الأمراء الصلاحية والأتراك، الذين كانوا يحرضون ضد حكم الأفضل، حتى انتهى الأمر بإخراجه من دمشق، وتعيين العادل بدلاً منه[112]. ونتيجة للحصار المتكرر على دمشق؛ ارتفعت أسعار الفواكه، مثل المشمش؛ بسبب ما كان يرافق الحصار من قطع الأشجار والأنهار، وتخريب البساتين[113].

وعادت الخلافات الأيوبية للظهور بعد وفاة الملك العزيز عثمان عام 595هـ/1200م، وتولي السلطنة الملك العادل، الذي سعى لتوطيد حكمه، وانتزاع أهم الإمارات الأيوبية له ولأبنائه من أبناء أخيه صلاح الدين، ما دفع الملكين الأفضل والظاهر للتحالف؛ لوقف أطماع العم، فحوصرت دمشق مجدداً في العام 596هـ/1201م، فقطعوا الماء عنها، وخربوا البساتين، وأحرقوا الغلال، فقلت الأقوات، فارتفعت الأسعار، ونفذت أموال العادل؛ فاضطر إلى الاستدانة من التجار[114].

وتجددت الصرعات بعد وفاة الملك العادل 615هـ/1219م، وبدأت بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الكامل صاحب مصر، على أنه لم يصل إلى حد المواجهة، لكن كلا الطرفين لوح بالاستعانة بالقوى الخارجية، فقد كاتب الكامل الانبرو ملك الألمان، ووعده بتسليم القدس، فيما هدد الأخير بالاستعانة بالخوارزميين، وإيقاف الخطبة والسكة للكامل[115]، وهذا يعني ضرراً بالعملة السائدة في ذلك الوقت؛ لأن ظهور عملة جديدة ستؤدي إلى التوقف بالعملات القديمة وجعلها بلا قيمة، مما يكبد التجار والعامة خسائر فادحة.

اشتدت الخلافات بعد وفاة الملك المعظم عيسى 624هـ/1227م، وتولى ابنه الناصر داود حكم دمشق، الذي أعلن تمرده على عمه الكامل؛ ما دفع الأخير إلى تشكيل حلف جديد بمساندة أخيه الأشرف، وفرض حصار شديد على دمشق، فقطعوا عنها نهر بانياس، والقنوات، وأحرقت بعض المواضع بدمشق، وانعدمت الأقوات والغلال والفواكه، فغلت الأسعار، حيث بلغت الأشنان تسعة فلسات، ثم ارتفعت الأوقية إلى أربعة عشر فلساً، وبلغت أوقية الخبز نصف درهم، والمثلث منه بيع رطله بثلاثة عشر قرطاساً، ورطل اللحم ستة

109) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص224.
110) ابن العديم، زبدة الحلب، ص475؛ ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص174.
111) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص237_241؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص222.
112) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص234، 239، 243.
113) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص31.
114) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص271؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص111.
115) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص140.

دراهم، والجبن ستة دراهم، ولم يكن بدمشق رخيص سوى السكر والحلواء، لقلة الطلب عليها، وكثرة السكر، ونفذت الأموال في خزائن دمشق، وانقطعت رواتب الموظفين والجند، حتى اضطر الناصر داود لصهر الأواني الفضية والذهبية لدراهم ودنانير؛ ليتسنى له دفع الرواتب المتراكمة على الدولة، واستمر الحصار أشهر إلى أن تم انتزاعها من الناصر داود، وتسلمها الملك الأشرف بن العادل[116].

بعد وفاة الأشرف سنة 635هـ/1238م، تجددت تلك النزاعات بين الكامل وأخيه الملك الصالح إسماعيل الذي تسلم دمشق بعد الأشرف، وكان الكامل يريدها لابنه الصالح نجم الدين أيوب، فحاصر دمشق مجدداً، وقطع عنها الماء، وجرى خراب بظاهرها، قيل لم يجر مثله من قبل، وأحرقت العقيبة والطواحين، ونهبت البساتين، وأحرقت الجواسق، وهدمت الكثير من الخانات، والأسواق، فشهدت البلاد غلاءً فاحشاً؛ لقلة الأقوات والغلال[117]، وضاق الحال بالناس، فنهبت ما بالقصور السلطانية، وبيعت مقتنياتها بأبخس الأثمان، فقد بيعت دّواة* قيمته مئتا درهم بخمسة دراهم، وبيع طست* سلطاني بعشرين درهماً، يقدر سعره الأصلي بثلاث مائة درهم، وبيع أبريق يقدر ثمنه بثلاثمائة درهم، بعشرين درهماً[118].

يبدو أن طموحات الناصر داود وعمه الصالح إسماعيل لم تقف عند حدود الكرك وبعلبك، لهذا كانت وفاة الكامل إيذاناً بعودة الخلافات، ففي الوقت الذي حسم الصراع بين أبناء الكامل، العادل والصالح نجم الدين أيوب، لصالح الأخير، سعى عمه الصالح إسماعيل لاسترجاع دمشق، وأعلن تمرده على ابن أخيه، وحاصر دمشق سنة 636هـ /1238م، فارتفعت الأسعار، حيث بلغت غرارة القمح خمسة وعشرين ديناراً، ما يعادل مائتان وخمسة وعشرين درهماً، وبيع رطل الخبز بدرهم[119].

استطاع الصالح إسماعيل العودة إلى حكم دمشق سنة 637هـ/1239م، واستمر بحكمها حتى عام 642هـ/1245م، بعد أن حاصرها الصالح نجم الدين أيوب والخوارزميون، فأحرقت قصور وجوامع في دمشق، وقطعت الأنهار، والطرق، وجرى بدمشق أمور بشعة، واستمر الحصار شهوراً، فقلت الأقوات، وغلت الأسعار، إلى أن خرج الصالح إسماعيل منها، واتجه نحو بعلبك[120].

انقلب الخوارزميون على الصالح نجم الدين أيوب، وتحالفوا مع الصالح إسماعيل، وحاصروا دمشق مجدداً سنة 643هـ/1246م، وقطعوا الطرق بينها وبين المدن الشامية الأخرى، فضيقوا عليها، وأحرقت أحياء بدمشق، ونهبت البيوت، فضاق الحال على أهلها، وقلت الأقوات وعدمت، وشهدت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً، حتى بلغ ثمن الغرارة في بداية الحصار ستمائة درهم، ثم ارتفع سعرها حتى وصل ما بين ألف وستمائة إلى ألف وثمانمائة درهم، والمد منه بعشرين درهماً، وفي آخر الحصار وصل سعر الغرارة ألفين ومئتين درهم، وقنطار الدقيق تسعمائة درهم، والأوقية والربع منه بدرهم، ثم أصبح الرطل بعشرة دراهم، والخبز كل وقيتين إلا ربع بدرهم، وأحياناً الأوقية بنصف درهم، وبيع الخبز الأسود أوقيتين بدرهم، وخبز الشعير اوقيتين ونصف بدرهم، واستمر ارتفاع الخبز حتى وصل إلى سبعة دراهم، ثم عاد للهبوط في السنة التي تليها، فبلغ رطله بدرهمين، ثم رخص حتى وصل الرطل بدرهم ونصف، ثم الرطل والثلث منه بدرهم، ثم رطل ونصف بدرهم، أما غرارة الشعير فبيعت في أوقات الغلاء بستمائة درهم، والكيل منه بخمسين درهماً، وارتفعت أسعار اللحوم، حيث بلغ رطل اللحم من سبعة إلى تسعة دراهم، ثم نزل سعرها في العام الذي يليه حتى وصل الرطل

---

116) أبي الفضل عبد الرازق بن أحمد بين أبي المعالي الشيباني(ت723هـ)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تقديم، محمد رضا، مصطفى جواد، بغداد، المكتبة العربية، 1351هـ، ص75.

117) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت 733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، مركز تحقيق التراث، 1992م، ج29، ص225؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص379.

*) دواة: وعاء للحبر. مختار، أحمد، معجم اللغة العربية المعاصرة، القاهرة، عالم الكتب، 2008م، ج1، ص793.

*) طست: إناء كبير مستدير من النحاس أو الفضة، يستعمل لغسل اليدين. مختار، معجم اللغة، ج2، ص1399.

118) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج22، ص345.

119) أبوشامة، الذيل على الروضتين، ص258؛ ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي القاهري (ت809هـ)، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، دراسة وتحقيق، سمير طيارة، بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 1999م، ص110_111.

120) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص166.

بدرهمين، ثم كل رطل وثلث بدرهم، ثم كل رطل ونصف بدرهم، أما التبن فقد بيع في وقت الغلاء كل أوقية بقرطاس، وتدرج ارتفاع الزبيب كل أوقيتين بدرهم، ثم بيع كل أوقية ونصف بدرهم، وكذلك الدبس، وبلغت الحلاوة الجوزية من الدبس كل أوقية بدرهم، وكان ينادى عليها وقد نزل سعرها، كل أوقية بستة عشر قرطاساً، فقال البعض، كنا نأخذها بعشرة فلوس الوقية، كما ارتفعت أسعار الخضار، فبلغ سعر رطل الباقلاء الأخضر بدرهم وربع، وبيعت أوقية البصل بنصف درهم، والأرز باللبن ثلاث أواق ونصف بدرهم، والأرز اليابس كل أوقيتين بدرهم، والفحم الرديء كل رطل بستة دراهم، وبيعت الأملاك بالدقيق، وأُكلت القطط والكلاب والجيف والميتة، ومات من الناس خلق عظيم، حتى عجز عن التغسيل والتكفين، حتى أنتنت المدينة، ومع هذا استمر فرض المكوس والضرائب على الناس، واستمر الحال ثلاثة شهور[121].

لم تكن دمشق المدينة الوحيدة التي تتعرض للحصار أثناء النزاعات الأيوبية، فقد تعرضت حلب وحمص وحماة وبعلبك لذلك، ففي سنة 635هـ/1238م، حاصر ملك حمص الملك المجاهد شركوه الثاني بن محمد بن شيركوه الأول حماة، وكانت للملك المظفر الثاني بن المنصور بن تقي الدين بن شاهنشاه، فقطع عنها الماء، وحاصرها عدة أشهر، فخربت البساتين، وجفت الأشجار، وبطلت النواعير والطواحين[122].

ثالثاً: الغزو المغولي (التتار):

بدأ الاجتياح المغولي* لبلاد الشام في سنة 656هـ/ 1258م، واستمر عامين، وقد عظمت الأراجيف بالشام، فخرج الكثير من الشام نحو مصر[123]، وقد أفرد المؤرخون فيما عمله المغول من أعمال وحشية، لم تقل عما فعلوه في بغداد، وأعدموا سلطان الشام الناصر يوسف وأخاه الغازي[124]، فوقع الغلاء في الشام كلها، فبيع مكوك القمح في حلب بمائة درهم، ومكوك الشعير بستين درهماً، والبطيخة الواحدة بثلاثين درهماً، في حين رخصت الأمتعة وأسعار المنازل والألبسة[125].

تمكن المغول من السيطرة على دمشق سنة 658هـ/1260م، وانتهى حكم الأيوبيين بذلك، وشهدت البلاد حالة غلاء فاحش، في جميع الأشياء من المأكول والملبوس وغيرهما، إذ بلغ رطل الخبز درهمين، ورطل اللحم خمسة عشر درهماً ثم نزل سعرها حتى وصل الرطل تسعة دراهم، وأوقية القنبرس درهماً، وأوقية الجبن درهماً ونصف ثم نزل سعرها آخر العام حتى وصل رطل الجبن باثني عشر درهماً، وبيعت البطيخة بسبعة دراهم، والثوم أوقية بدرهم، والعنب الرطل بدرهمين، وبيع رأس الأضحية بثلاثة آلاف درهم ثم نزل إلى ستمائة درهم[126]، واستغل البعض الحالة التي مرت على الأهالي بدمشق من زحف التتار، فكان البدوي يجلب الجمل ويبيعه أضعاف

---

121) اليافعي، أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني (ت768هـ)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه، خليل منصور، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997م، ج4، ص83.

122) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص176_177.

*) المغول مجموعة من القبائل، وهي ست قبائل؛ القيات، والأويرات، والنّايمان، والكرايييت، والماركييت، والتتار، استوطنت تلك القبائل هضبة منغوليا أطراف الصّين، استطاعوا التّوحد وتأسيس أكبر إمبراطوريّة في التّاريخ، امتدت من سيبيريا إلى حدود الجزيرة العربيّة وبلاد الشّام، وبعد أن وصل جنكيز خان إلى حكم المغول استطاع توسيع إمبراطوريته، وهزيمة الصين واحتلال بكين سنة 612هـ/1215م، ثم انقسمت الدّولة إلى أربعة أقسام بعد وفاة جنكيز خان، وقاد هولاكو المغول، واستطاع اسقاط حكم الخوارزميين، وأخضعوا بلاد فارس وغيرها له، ثم اتجه نحو بغداد، وأسقط الخلافة العباسية وقتل الخليفة العباسي سنة 656هـ/1258م، ثم اجتاح الشام، وقتل الملك الناصر يوسف آخر السلاطين الأيوبيين.

شبرلر، برتولد، العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلى العربية، خالد أسعد، راجعه وقدم له، سهيل زكار، دمشق، دار حسان، 1982م، ص15_35؛ Paul, Jean Roux, Genghis Khan and Mongol Empire, London, 2003, p17_24.

123) ابن واصل، مفرج الكروب، ج6، ص261.

124) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص519.

125) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص499، 509.

126) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت764هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق، أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 2000م، ج15، ص288.

قيمته، ويشتري الغلة رخيصة؛ لأن الناس بين خائف يبيع حاصله، ليتجهز به، ومحتاج إلى الجمال لسفره، وبين من هو موكل عليه ليسافر، وبلغ كراء الجمل من دمشق إلى القاهرة نحو مائتي درهم[127]، وارتفعت الضرائب في العام نفسه، حتى فرض على صحن الحلوى خمسة دراهم، وقدح الشراب كذلك، وقد وصل مقدار ارتفاعها على بعض المنتجات ما بين عشرين درهماً إلى ثلاثين درهماً، كما هو الحال على الملابس[128].

استمر الغلاء حتى عام 659هـ/ 1261م، حيث بلغ رطل اللحم سبعة عشر درهماً في دمشق، وفي حلب بيع رطل اللحم بثمانية دراهم، ورطل الأسماك ثلاثين درهماً، ورطل اللبن خمسة عشر درهماً، ورطل الشيرج سبعين درهماً، ورطل الخل ثلاثين درهماً، ورطل العسل ثلاثين درهماً، ورطل الرمان ثلاثين درهماً، ورطل السكر خمسين درهماً، ورطل الشراب ستين درهماً، والجدي أربعين درهماً، والدجاجة بخمسة دراهم، والبيضة بدرهم ونصف، والبصلة بنصف درهم، والخسة نصف درهم، وحزمة البقل بدرهم، والتفاحة بخمسة دراهم، ورطل الأرز عشرين درهماً، ورطل الحلوى خمسين درهماً، والبطيخة بأربعين درهماً، حتى أكل الناس الميتة من شدة الجوع[129]، وبلغت الغرارة من القمح كحد أدنى أربعمائة وخمسين درهماً، وغرارة الشعير مئتين وخمسين درهماً، وبيع مكوك القمح في حلب وحماة بأربعمائة درهم، ورطل الخبز من ثلاثة دراهم إلى خمسة دراهم[130]، وذكر أحد التجار المقيمين في حلب، وكان يمتلك أربع بقرات حلابات، وكانت تدر له لبناً في اليوم بما يعادل مائة وأربعين درهماً، أنه عرض عليه بيع البقرات بستة آلاف درهم، كل بقرة بألف وخمسمائة درهم، وكان قد باع خمس نعاج وثلاث خراف بتسعمائة درهم[131].

الظروف الاقتصادية والاجتماعية:

الاعتداءات على القوافل التجارية:

كانت القوافل التجارية تتعرض بين الفترة والأخرى للنهب والسلب، من قبل أطراف الحرب، وأصبحت تلك العمليات جزء من الحرب، وبمباركة كلا الطرفين لها؛ ما أدى إلى نقص المواد الواردة إلى الشام، وخاصة المواد الغذائية، كما شكلت تلك الاعتداءات هواجس خوف لدى التجار الشاميون؛ فتأثرت تجارتهم الداخلية والخارجية، واستغل بعضهم تلك الحالات، فكانوا يرفعون الأسعار بحجة المخاطرة[132].

ففي عام 588هـ/1192م تعرضت قافلة مصرية أيوبية كانت متجهة نحو الشام للنهب من قبل القوات الفرنجية[133]، كانت تضم أقوات وبضائع منها السكر، وتكونت من ثلاثة آلاف جمل، تتراوح حملها بين ثلاث آلاف حمل إلى ستة آلاف حمل، وقيل إنها أربعة الاف وسبعمائة حمل[134]، وقدر وزن ذلك المحمول ما بين تسعمائة طن إلى ألف واربعمائة طن[135].

127) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص336.

128) اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد (ت726هـ)، ذيل مرآة الزمان، القاهرة، دار الكتب الإسلامي، 1992م، ج1، ص389، 406، 432.

129) ابن دقماق، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، ص273؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج1، ص436_437.

130) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص541.

131) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج1، ص437.

132) Goitein, op.cit, v1, p327.

133) ابن شداد، النوادر، ص319؛ أبو شامة، الروضتين، ج4، ص179؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص310؛ قاسم، قاسم عبده، في تاريخ الأيوبيون والمماليك، القاهرة، دار عين للدراسات، 2009، ص57.

134) Ambroise, op.cit, p208.

135) Ambroise, ibid, p390.

وسعى طرفا الحرب إلى تأمين تجارتهم من خلال عقد الاتفاقيات؛ لما لها من دور في دعم الاقتصاد، جراء متحصل الرسوم الضريبة والجمركية[136]، مما تحقق لهم أموالاً طائلة[137]، كان في مقدمتها معاهدة عام 571هـ/ 1175م[138]، ومعاهدة عام 576هـ/ 1180م بين صلاح الدين وبلدوين الرابع، وتمحورت حول حرية التجارة والانتقال بين الطرفين، لكن الفرنجة نقضوا المعاهدة واعتدوا على تجار شاميين أثناء عودتهم من الإسكندرية[139]، واتفاقية 581هـ/ 1185م بين ريموند كويت وصلاح الدين، ومدتها أربع سنوات وقد كفلت الاتفاقية حرية التجارة بين مصر والشام[140]، إلا أن المعاهدة نقضت من الفرنجة بعد عامين بعد تعرض قافلة مصرية متجهة نحو الشام، سلب منها كل ما تحمله علاوة عن أسر كبار التجار والشخصيات الهامة[141]. ثم وقع السلطان صلاح معاهدة الرملة عام 588هـ/ 1192م، بعد فشل الحملة الفرنجية الثالثة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الاتفاقية مكنت الفرنجة من الساحل الشامي الجنوبي، وهذا يعني تمكين الصليبيين من حركة التجارة البحرية، إضافة إلى امتلاكها اللد والرملة، ما يترتب عن امتلاكها من سيطرة الصليبيين على موارد اقتصادية هامة[142].

مال خلفاء صلاح الدين بشكل كبير إلى مهادنة الفرنجة، بسبب منازعاتهم الداخلية، فأبرم العادل معاهدة عام 594هـ/ 1197م مدتها ثلاث سنوات، ومعاهدة عام 599هـ/ 1202م، ومعاهدة 601هـ/ 1204م ومدتها ست سنوات، ومعاهدة 607هـ/ 1210م ومدتها خمس سنوات، حقق الأوربيون من خلالها السيطرة على الرملة والناصرة ويافا واللد وصيدا[143].

واستغلت الجمهوريات الإيطالية هذه المعاهدات، فتسعت امتيازاتها سواء بمصر أو بالشام، وأخذت تصدر الخشب إلى الشام، وحققت تلك المعاهدات ارباحاً عالية عند المسلمين وازدهرت التجارة، وضمن للمسلمين مورداً مالياً كبيراً ارتفعت فيها مستوى معيشة أهل الشام[144].

وأبدى الملك الكامل ليونة كبيرة في تفاوضه مع الفرنجة أثناء حصار دمياط، وذلك بتنازله عن كل الفتوح الصلاحية، عدا الكرك والشوبك، لأهميتها في ربط مصر والشام، مقابل وقف حصار دمياط وعدم التعرض للأراضي المصري، وقد عرفت هذه الاتفاقية بصلح يافا 627هـ/ 1229م[145]، وبها تمكن الفرنجة من السيطرة على الطرق التجارية البرية والبحرية للشام[146].

الخطر الثاني الذي كان يهدد القوافل التجارية الشامية، غارات القبائل العربية، التي كانت تقطن الطريق التجاري بين مصر والشام، مثل قبيلة طيء في شرقي نهر الأردن والغور[147]، وبني جرم في غزة[148]، وبني صخر في الكرك والشوبك، وبني مهدي من جذام

136) كاهن، كلود، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة، أحمد الشيخ، القاهرة، سينا للنشر، 1995م، ص141.

137) Archer.T.A, Kingford, The Crusade the History of The Latin Kingdom of Jerusalem, booker press, New York 1894, p.255.

138) ابن الاثير، الكامل، ج10، ص79.

139) ابن كثير، البداية، ج12، ص264.

140) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج3، ص 176.

141) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص194-195.

142) ابن شداد، النوادر، ص274، 344، 346-347.

143) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص18؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص78، 162.

144) زابروف، مخائيل، الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، موسكو، دار التقدم، 1986م، ص382-383.

145) ابن العميد، الشيخ عبد الله بن جرجس بن أبي ياسر بن أبي المكارم بن أبي الطيب (ت671هـ)، اخبار الأيوبيين، القاهرة، مكتبة الثقافة، د.ت، ص12.

146) عاشور، سعيد، الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي، ضمن كتاب "بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى"، بيروت، جامعة بيروت، 1977م، ص124.

147) كحالة، عمر، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1994م، ط7، ج1، ص89، 338.

148) كحالة، المرجع السابق، ج2، ص437، 579؛ ج3، ص899.

في منطقة البلقاء، وقبيلة بني عوف في عجلون[149]، والضواحك من بني طيء في وادي الخليل[150]، وكانت بعض هذه القبائل تتجه نحو تشكيل كيان عربي منذ زمن، كقبيلة طيء، التي حاولت أن تشكل دولة لها في شرقي نهر الأردن[151].

قامت الممالك الفرنجية بسلسلة من الحملات العسكرية، لإخضاع تلك القبائل العربية الشامية[152]، كما حدث في حملة لوزتيان كونت عام 570هـ/ 1184م[153]، ورغم ما حققته تلك الحملات من انتصارات إلا أن القبائل العربية استمرت في الغارات على القوافل الفرنجية التجارية وقوافل الحجاج، ما دفع الفرنجة إلى اتخاذ أسلوب المهادنة وعقد الاتفاقيات وابرام المعاهدات السياسية والاقتصادية مع تلك القبائل[154]، وتطورت العلاقة بينهم حتى وصل الأمر إلى التعاون الأمني والعسكري، مثل تعاون قبيلة جرم[155]، فكانت تزود الفرنجة بأخبار حركة القوافل التجارية الشامية، والمساعدة في الإغارة على تلك القوافل[156]، وفي عام 582هـ-583هـ/ 1186-1187م، قدمت احدى القبائل العربية معلومات عن القافلة المصرية المتجهة نحو بلاد الشام للأمير ربنودي شاتيون، وان الكرك ستكون احدى محطات هذه القافلة[157]، وقدموا معلومات مشابهة حول القافلة المصرية المتجهة نحو الشام عام 588هـ/ 1192م، وقد منح الملك ريتشارد لهم ثلاثمائة مارك فضي[158].

قام صلاح الدين بعدة حملات تأديبية لتلك القبائل[159]؛ لأنهم كانوا بمثابة "آفة المسلمين ودليل الكفار على المسلمين"[160]، وقام بإجلاء بنو عباد التي تقطن الكرك[161]، وصادر عام 577هـ/ 1181م، إقطاعات تعود إلى قبائل جذام وثعلبة؛ لأنهم كانوا ينقلون الغلال إلى بلاد الصليبيين، وثم أمر بترحيلهم إلى مصر[162]، ما دفع القبائل لمراسلته السلطان في محاولة لكسب وده والمطالبة لهم بالأمان، مقابل تقديم خدمات أمنية وعسكرية لجيشه، وقد استجاب صلاح الدين لطلبهم وقدموا له خمسمائة فرس[163].

لجأ السلطان صلاح الدين إلى استمالة القبائل العربية، من خلال اقطاعهم بعض الاقطاعات، وإحياء إمرة العرب، والتي تعنى دخول تلك القبائل تحت سطوة الدولة، وأناط لهم التصرف في شؤون القبائل وتنظيم امورهم الداخلية[164]، وزاد صلاح الدين من اقطاع بني

149) براو، يوشع، الاستيطان الصليبي في فلسطين "مملكة بيت المقدس"، ترجمة، عبد الحافظ البنا، دار عين للدراسات، 2001، ص71.

150) السيد، علي احمد، الخليل والحرم الابراهيمي عصر الحروب الصليبية، القاهرة، دار الفكر العربي، 1998م، ص80.

151) الحويري، محمود، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر عصر الحروب الصليبية، القاهرة، دار المعارف، 1979م، ص17.

152) Milwrit. M, The Fortress of Raven, Karak in the Middle Islamic period (1100-1650), in Islamic History and Civilization, Ed. By, Gunnther. S, Brill, Leiden, Boston, 2000, p.8.

153) مجهول، ذيل وليم الصوري، ص19-20.

154) Albert of Aachen, History of The Journey to Jerusalem, Trans, Susan Edgiton, Oxford University press, New York, 2007, p863_879.

155) السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص188.

156) الصيفي، القوافل التجارية، ص140-141.

157) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص114؛ مجهول، ذيل وليم الصوري، ص52.

158) Mclynn, F, Richard And John, Kings at War ,Dacapo press, Philadelphia, 2007,p.208

159.) Milwrit, op.cit, p33

160) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ص183؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص156.

161) البنداري، سنا البرق الشامي، ص65.

162) السيد، محمود، تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1998م، ص41.

163) العيني، عقد الجمان، العصر الأيوبي، ج2، ص252.

164) ابن يحيى، صالح بن سيف الدين يحيى بن صالح بن الحسين التنوخي (ت نحو850هـ)، تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بنى العرب، تحقيق، لويس شيخو اليسوعي، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1898م، ص71-73.

بحتر في بيروت وضواحيها؛ لدورهم في معركة حطين 583هـ/ 1187م[165]، ومنحهم الملك الأفضل اقطاع الغرب كاملاً[166]، وفي عهد الملك العادل منح فضل بن ربيعة إمرة العرب في دمشق، ومنح الصالح أيوب الأمير نجم الدين بن حجي بن كرامة المزيد من الإقطاعات[167].

واستطاع صلاح الدين من ضم القبائل العربية إلى جيشه[168]، وكانت تتلقى راتباً جراء ما تقوم به من أعمال[169]، وكان من أبرز هذه القبائل المشاركة في الجيش قبيلة جذام الذي بلغ قواتها في الجيش الصلاحي حوالي ألف وثلاثمائة فارس[170]، وقد سمح لهم السلطان بالاتجار، فتاجروا بالتمر والزيتون والعناب والإبل والاغنام والخيول والصوف واللحوم المجففة[171].

أثر العملة الأيوبية واختلاف قيمة الصرف:

ترتبط قوة العملة بالقوة الشرائية لها، والتي تعني مقدار السلع والخدمات التي يمكن للفرد الاستفادة منها بواسطة دخله المتاح وخلال فترة زمنية محددة، ويؤدي انخفاض قيمة العملة إلى ارتفاع أسعار المواد والخدمات أو ما يعرف بالتضخم، وهذا بدوره يؤدي إلى انخفاض كمية السلع التي يمكن شراؤها بنفس كمية النقود، مما يؤدي إلى حاجة السكان إلى مقدار أعلى من النقود لتعويض هذا النقص وهذا ما تقوم به الدول عادة بزيادة الرواتب والأجور بقيمة تعوض هذه الزيادة لمواجهة ارتفاع الأسعار[172].

ويساهم الفساد النقدي عادة في عجز الفقراء والمعدمين من تحصيل حد الكفاف، وما يحفظ عليهم حياتهم، ويضعف القيمة الشرائية للنقود، يقول المقريزي: "من كان يكتسب في اليوم درهماً يقوم بحاله، ويفضل منه شيء، صار الدرهم لا يجدي شيئاً، فمات ومات أمثاله من الأجراء والعمال والصناع والفلاحين"[173].

خلال الفترة الأيوبية برزت ظاهرة اختفاء العملات الذهبية ثم الفضية لاحقاً من الأسواق؛ بسبب انخفاض استغلال مناجم الذهب، وسياسة الاحتكار للذهب التي لجأ إليها الأمراء الأيوبيون، وسياسة الاكتناز التي مارسها كبار رجال الدولة، إلى جانب تهريب الذهب إلى أوروبا[174]، كما أخذت الفضة بالتناقص؛ بسبب استخدام الفضة في صناعة المجوهرات والأواني، كما قل وصول الفضة إلى بلاد الشام لشدة الطلب عليها في أوروبا، وتهريب الدراهم الأيوبية إلى أوروبا[175].

ومارست أوروبا حربها ضد النقود الأيوبية، فقد نصت الفتاوى البابوية بمنع التعامل بالنقود الإسلامية، ولما شعرت بأن ذلك غير ممكن على أرض الواقع، قامت بإصدار عملات مشابهة للعملات الإسلامية، وقامت بضخها بالأسواق الشامية، وجعلتها العملة

---

165) المصدر السابق، ص76.

166) ابن سباط، تاريخ ابن سباط، ج1، 214-215.

167) ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص80.

168) سيميوفا، ل.أ، صلاح الدين والممالك في مصر، ترجمة، حسن بيومي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1999م، ص215.

169) Nicolle.p, and Mcbride, A. Saladin and The Saracen Armies of The Middle East (1100-1300), in "Man _at_ Arms series", London, ed By Windraw, 1986, Vol 16, p14-15

170) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص152.

171) شيخ الربوة، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن ابي طالب الدمشقي (ت727هـ)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق وتصحيح، مهران ميخائيل، بطرسبورغ، مطبعة الاكاديمية، 1865م، ص200.

172) ويلسون، سام بول؛ نوردهاوس، ويليام، الاقتصاد، ترجمة، هشام عبد الله، مراجعة، أسامة الدباغ، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع، 2001م، ص517_520.

173) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج3، ص234.

174) النبراوي، رأفت، النقود الإسلامية منذ بداية القرن السادس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، 2000م، ص84

175) آشتور، آ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق التوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، مراجعة، أحمد سبانو، دمشق، دار قتيبة، 1985م، ص389.

الرسمية في التعاملات التجارية بين الطرفين، فكانت تفرضها في مراكز الجمرك التابعة لها، إلى جانب ذلك زيفوا العملات الإسلامية؛ لإفقاد ثقة الناس بها[176].

أدى التلاعب في وزن وعيار النقود الأيوبية[177]، وانتشار الفلوس المغشوشة[178]، إلى تقلب سعر الصرف للدرهم والفلوس في بلاد الشام، وخفض قيمتها الشرائية، وارتفاع أسعار السلع، وعدم ثقة العامة بها، ورواج العملات الفرنجية[179]، ففي سنة 658هـ/1260م تعرضت بلاد الشام لغلاء فاحش، حيث وصل سعر رطل الخبز إلى درهم ونصف، ورطل اللحم إلى خمسة دراهم، وأوقية القنبرس إلى درهم، والجبن إلى درهمين، وأوقية الثوم إلى درهم، ورطل العنب إلى درهمين، يقول أبو شامة " ومن أكثر أسبابه ما أحدثه الفرنجة من ضرب الدراهم المعروفة باليافية، وكانت كثيرة الغش، حيث كانت نسبة الفضة منها خمسة عشر (15%) والباقي نحاس، وكثرت في البلد، وتحدث في إبطالها مراراً، فبقي كل ما عنده شيء حريصاً على إخراجه خوفاً من بطلانها، فتراه دأب في شراء أي شيء كان، فتزايد في السلع بسبب ذلك إلى أن بطلت في أواخر السنة، فعادت تباع كل أربعة منها بدرهم ناصري مغشوش أيضاً بنحو النصف"[180].

أسعار الصرف[181]:

السنة	سعر صرف الدرهم	سعر صرف الفلس
583هـ	13درهم وثلث/ دينار	
583هـ	26 درهم ناصري وثلثي الدرهم/ دينار	
591هـ	40 درهم/ دينار	
592هـ	13 درهم وثلث/دينار	
600هـ	4 دراهم/دينار	
611هـ		ضربت القراطيس السود
622هـ	37 درهم كاملي/ دينار	48 فلس / درهم كاملي
	45 درهم ناصري/ دينار	26 فلس/ درهم ناصري قديم
	10 دراهم ناصري/ 8 دراهم كاملية وربع	
	40 درهم ناصري/ دينار (الحكومة)	
	50_43 درهم ناصري/ دينار (الصيارفة)	
630هـ	10 دراهم/دينار	أبطل التعامل بالفلوس؛ لانخفاض قيمتها الشرائية

176) النبراوي، رأفت، النقود الصليبية في الشام ومصر، القاهرة، دار نهضة الشرق، 1996م، ص78_81.

177) أنظر قائمة إصدارات العملة الأيوبية في: ابن بعرة، كشف الأسرار، ص 98_131.

178) ابن طولون، محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي الحنفي (ت953هـ)، القلائد الجوهرية في تاريخ الصلاحية، تحقيق، محمد الحسين، قدم له، مازن مبارك، عمان، دار أروقة للدراسات والنشر، 2013م، ج2، ص148

179) النبراوي، النقود الصليبية، ص256_269.

180) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص322.

181) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص133، 258؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث 641_650هـ، النويري، نهاية الأرب، ج28، ص452؛ ابن فضل العمري، مسالك الأبصار، ج3، ص278؛ المقريزي، إغاثة الأمة، ص144؛ ص22؛ المقريزي، الخطط المقريزية، ج2، ص175؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص133، 368، 378؛ النبراوي، النقود الإسلامية، ص95_101؛ الجوبري، عبد الرحيم بن عمر بن أبي بكر جمال الدين الدمشقي (ت. ق. 7 هـ)، المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار، دمشق، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، 1998م، ص135؛ طواهية، فوزي، النشاط التجاري وحركة الأسعار في مصر زمن الأيوبيين (569_ 648هـ/ 1173_1250م)، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، م42، ع2، الأردن، 2015م، ص300؛ Ehrenkreutz, A, Contribution of Knowledge of The Fiscal Administration of Egypt in The Middle Ages, Bulletin of the School of Oriental and Afrin Studies, London, 1954, XVI, p.504.

634هـ	رطل درهم ناصري/ 2.5درهم كاملي	أعيد العمل بالفلوس،1دينار/18 فلس، 1درهم/ 6فلس
636هـ	9 دراهم/دينار	
643هـ	16 درهم/دينار	
658هـ	75 درهم/دينار	
659هـ	28 درهم/دينار	

تباين البنية السكانية الشامية:

تباينت البنية السكانية في بلاد الشام خلال فترة الحكم الأيوبي، حتى نهاية الحروب الفرنجية بين الارتفاع؛ نتيجة عوامل الجذب، وبين الانخفاض؛ نتيجة ارتفاع أعداد الموتى؛ ما أسهم في التلاعب بقواعد العمل في السوق، بمعنى آخر كان لأعداد السكان الدور الأهم في زيادة أو انخفاض الطلب على السلعة أو الخدمة، وبشكل عام فإن الزيادة السكانية تربطها علاقة طردية بزيادة الطلب على السلع والخدمات.

شهدت بلاد الشام ارتفاعاً في عدد السكان بداية الحكم الأيوبي، وتحديداً دمشق وحلب[182]، وذلك بفعل عوامل عدة منها؛ تردي الأوضاع الحضارية والاقتصادية في الأقاليم المجاورة مثل بغداد والحجاز، وسوء الحالة الأمنية في تلك المناطق، والانقسامات الداخلية، وظلم الولاة والوزراء وتحكمهم في مقومات الاقتصاد[183].

ولعبت الظروف التاريخية والعسكرية لبلاد الشام دوراً كبيرا في ارتفاع عدد سكان الشام، حيث كانت الشام ساحة قتال بين المسلمين والفرنجة؛ مما تطلب تواجد أعداد كبيرة من العساكر من كلا الطرفين في ظل تعبئة الرأي العام سواء على نطاق الساحة الأوروبية، متمثلة بدعوات البابا "لتحرير" القبر المقدس[184]، حتى وصل أعداد الفرنجة في القدس وحدها مائة ألف أوروبي[185]، أو من خلال النداء الإسلامي للجهاد، الذي تبناه كبار رجال الفقه الإسلامي وكبار رجال السياسة وعلى رأسهم الخليفة العباسي[186]، فبلغ عدد الجنود المسلمين المتواجدين في عكا أثناء حصارها من الفرنجة عام 586هـ أكثر من عشرين ألفاً دون أهلها[187]، وساهم الزحف المغولي نحو فارس والدولة الخوارزمية ولاحقاً العراق، في دفع الكثير من الناس بالهجرة نحو الشام[188].

ازدحمت بعض مدن الشام بالسكان مثل دمشق وحلب، لا سيما بعد تدفق الهاربين إليها من الحروب الفرنجية، إلى جانب حرص الأمراء والملوك والفقهاء والعلماء وطلاب العلم المكوث فيها[189]؛ نجم عن ذلك حالة من التضخم السكاني، وصار عدد سكانها ضعف

182) ابن العديم، زبدة الحلب، ص328، 357.

183) ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ص47.

184) باركر، أرنست، الحروب الصليبية، نقله إلى العربية، السيد الباز العريني، بيروت، دار النهضة العربية، 1967م، ص23؛ سميث، جوناثان رايلي، حالة الصليبيين الذهنية تجاه الشرق، تاريخ أكسفورد للحروب الصليبية، تحرير جوناثان سميث، ترجمة وتقديم وتعليق، قاسم عبده، القاهرة، عين للدراسات والبحوث،2007م، ص124_126.

185) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص84.

186) البنداري، الفتح بن علي بن محمد (ت 622هـ)، سنا البرق الشامي، مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني، تحقيق فتحية النبراوي، القاهرة، مكتبة الخانجي،1979م، ص33؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص19، 97.

187) العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص269.

188) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت626هـ)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1995م، ج5، ص332؛381.

189) ابن العديم، كمال الدين بن العديم بن عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت660هـ)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق، سهيل زكار، بيروت، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، 1988م، ج1، ص449_451.

ما تستوعبه تلك المدن؛ ما يعني أنها أثرت على حجم الموارد الطبيعية، وزيادة الطلب على السلع والخدمات، مع الأخذ بعين الاعتبار أن تلك الزيادة السكانية ستودي إلى رخص الأيدي العاملة.

وتظافرت عوامل الجذب لدى الشام فساهم ذلك في زيادة سكانها، من خلال وجود المؤسسات التعليمية التي حظيت باهتمام كبير لدى الملوك والأمراء الأيوبيين؛ ما دفع الكثير من علماء بغداد والقاهرة والحجاز للهجرة إلى بلاد الشام[190]، واتسعت مساحة بعض المدن، كدمشق وحلب وحماة، ونشطت فيها التجارة، وكثرت أسواقها حتى بلغت في دمشق بداية حكم الأيوبيين أكثر من مائة وتسعة وثلاثين سوقاً[191].

وشهدت الفترة الممتدة من 587_597هـ/1191_1200م، ارتفاعاً آخر في عدد سكان بلاد الشام؛ نتيجة توقيع صلح الرملة، فتوافد الحجاج الأوربيون ونشطت التجارة بين المدن الشامية ومدن الجنوب الأوروبي[192]، وارتفع عدد سكان بيروت والمدن الساحلية جراء إقبال التجار الأوروبيين عليها[193].

كما كان لتردي الأوضاع الاقتصادية في مصر فيما تعرف تاريخياً بالمجاعة الكبرى 595_597هـ/ 1198_1200م وانتشار الأوبئة، أثره في ارتفاع سكان الشام، بفعل الهجرات الجماعية من الريف المصري إليها[194]، إضافة لتوجه الحملة الصليبية الخامسة نحو مصر (613هـ/ 1216م)؛ ما دفع الكثير من التجار والفلاحين المصريين للتوجه نحو الشام؛ خوفاً على تجارتهم وحياتهم[195]، وشهدت الفترة ما بين 651_656هـ/1253_1258م، ارتفاعاً بعدد سكان الشام، بفعل سياسة الوزير ابن العقلمي* (ت656هـ/1258م)، الذي خفض عدد الجيش العباسي، وأنهى الكثير من المؤسسات الحكومية، إلى جانب اجتياح المغول للعراق وسقوط بغداد[196].

على أن الزيادة السكانية تلك كانت تتعرض في بعض الفترات الأيوبية إلى انتكاسات أدت إلى إضعاف البنية السكانية للشام بفعل عوامل بشرية وطبيعية، أهمها استمرار حالة الحرب، التي تعتبر بمثابة الميدان التقليدي الأكبر للفاقد البشري خلال الحكم الأيوبي، فقد استمرت الحروب الفرنجية، وقيام الطرفين بمجازر دونتها كتب التاريخ[197]، واتخاذ سياسة الأرض المحروقة، وتهجير سكان المدن والقرى[198].

كما ساهمت العوامل الطبيعية في إضعاف البنية السكانية للشام في الفترة الأيوبية، مثل انتشار الأمراض والأوبئة، رغم المحاولات الجادة التي قامت بها الدولة الأيوبية في مجال تحسين البيئة الصحية والوقائية، من خلال انتشار المشافي (البيمارستانات) في معظم مدن الشام، بيد أن تلك التحسينات أو الإجراءات الصحية كانت غير شاملة القرى والريف؛ ما جعل الفلاحين والمزارعين عرضة

190) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج22، ص162، 174، 195.

191) الأوتاني، أحمد، دمشق في العصر الأيوبي، دراسة سياسية، اقتصادية، اجتماعية، ثقافية، تقديم، سهيل زكار، دمشق، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، 2007م، ص376.

192) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص349.

193) العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص349.

194) البغدادي، رحلة البغدادي، ص131_145.

195) ابن فضل العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج27، ص146_147

*) هو محمد بن أحمد بن علي العقلمي، عرف بالتشيع، وكان وزير الخليفة العباسي المستعصم بالله، اتصل بالمغول، ورتب مع هولاكو احتلال العراق واسقاط الخلافة العباسية، على أمل أن يوليه حكم بغداد، إلا أن هولاكو قتله بعد أن تمكن من احتلال بغداد واسقاط الخلافة العباسية. الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث 641_650هـ، ص63.

196) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث651_660هـ، ص8، 44_47.

197) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص343_344، 376.

198) ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي (ت874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط1، قدم له وعلق عليه، محمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992م، ج6، ص43.

لانتشار تلك الأمراض؛ نتيجة ضعف مستوى الوعي الصحي ونقص الخدمات، إلى جانب ذلك كله، أدى حدوث الزلازل في بلاد الشام إلى أضرار جسيمة بالبنية البشرية، ولا ريب في أن الأرقام المرتفعة للخسائر البشرية التي أوردتها المصادر التاريخية، تعكس بصورة أو بأخرى حجم أثر تلك الظروف.

سياسة الاحتكار* وسوء الإدارة:

مارس ملوك الدولة الأيوبية ووزراؤهم وكبار قادتهم الاحتكار، وكانت معظم المعادن كالذهب والفضة والحديد والرصاص، والأحجار الكريمة، والخشب، التي يمكن أن تستورد من الخارج، أو يعثر عليها من باطن الأرض، حكراً للدولة يتم مصادرتها وإرسالها إلى الخزائن السلطانية، وليس لأحد أن يبيعها، أو يسعى إلى شرائها، سوى الديوان السلطاني، الذي يقوم ببيعها أو يحتفظ بها للملوك والأمراء، إلى جانب احتكار بعض السلع في فترات الغلاء كالتوابل والقمح والشعير والأرز[199].

فقد مارس الملك المعظم سياسة الاحتكار، وخاصة السكر، وكان من سياسته أن يوكل بعض التجار بالاتجار له، مثلما فعل مع إسماعيل بن غلام المني[200]، كما عرف عن الملك الجواد يونس بن مودود أنه كان يتجر، وكان يوكل عنه بدر الدين الكناني العسقلاني المعروف بابن المسجف[201]، وفي حماة، كان الناصر بن المنصور يجبر رعيته على شراء احتياجاتهم من متاجره، التي كانت تزدحم بالأغنام والغلال، وذكر أنها كانت تحتوي على خمسة آلاف مكوك[202]، وعرف عن الناصر داود ظلمه للرعية، وأخذ الأموال، واشتغاله باللهو، وإعراضه عن مصالح الأمة، وممارسته لاحتكار الغلال[203]، وكانت لسياسته أثر في ارتفاع الأسعار، حتى بيعت الغرارة من القمح في عهده بمائتي وثلاثين درهم[204].

وشهدت الأوضاع خلال فترة حكم الناصر بن العزيز تراجعاً عاماً في كافة المجالات، قال عنها الذهبي: "وظهرت المفاسد في دمشق، وانقطعت الأرزاق، والأسواق كاسدة، والرعايا فاسدة، والملك والوزير لا يستمعان لإغاثات الناس، ومظالم التجار"[205].

وتناولت المصادر بإسهاب سوء إدارة الوزير ابن الأثير الجزري* في عهد الأفضل، الذي "كثر شاكوه وقل شاكروه"[206]، وثارت عليه العامة بسبب ارتفاع الأسعار، وراسلوا الملك العزيز صاحب مصر[207]، وقيل إنه أخذ خراج دمشق وأعمالها لثلاث سنين ونقلهم إلى

*) تعرف السياسة الاحتكار بأنه حبس مال أو منفعة أو عمل، والامتناع عن بيعه وبذله حتى يغلو سعره غلاءً فاحشاً غير معتاد، بسبب قلته، أو انعدام وجوده، مع شدة حاجة الناس أو الدولة أو حتة الحيوان إليه، وعرف ابن تيمية المحتكر بأنه الذي يعمد إلى شراء ما يحتاج إليه الناس من الطعام فيحبسه عنهم سعياً لرفع سعره، واعتبرها المقريزي من أسباب انتشار الغلاء عبر التاريخ. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ) الحسبة في الإسلام، أو وظيفة الحكومة الإسلامية، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، ص21؛ المقريزي، إغاثة الأمة، ص76؛ الدريني، محمد فتحي، الفقه الإسلامي المقارن مع المذاهب، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 1992، ص90.

199) القوصي، عطية، تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، القاهرة، دار النهضة العربية، 1976م، ص212.

200) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج22، ص224.

201) ابن دقماق، نزهة الأنام، ص104.

202) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص157.

203) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص349.

204) ابن دقماق، نزهة الأنام، ص112.

205) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث 651_660، ص31.

*) ضياء الدين أبي الفتح نصر بن أبي بكر محمد المعروف بابن الأثير الجزري الموصلي، ولد في الموصل سنة 588هـ، مؤرخ وأديب وسياسي، تنقل بين الموصل وبغداد، ثم عمل كاتباً ووزيراً للملك الأفضل بن صلاح الدين، توفي في بغداد سنة 637هـ، له عدة مصنفات منها، الاستدراك والبرهان في علم البيان، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، وهو من عائلة أدبية، وشقيقه المؤرخ المعروف صاحب الكامل في التاريخ. ابن حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت1067هـ)، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، بغداد، مكتبة المثنى، 1941م، ج2، ص1586، 2021.

206) المقريزي، السلوك، ج1، ص243، 244.

207) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص245.

الموصل، وأعاد فرض المكوس والضمانات، وهرب الكثير من التجار وكبار رجال الدولة والفقهاء إلى مصر وحلب والعراق بسبب سياسته[208]، وشكل بعضهم جبهة معارضة ضد حكم الأفضل والوزير، فيما اعتزل البعض العمل السياسي والإداري، مثل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني[209]، وخرج القاضي ابن شداد نحو حلب، ورافقه جمال الدين الحصين، واتجه نحو مصر الأمير صارم الدين قايماز، والأمير شمس الدين بن السلار، والأمير عز الدين أسامة، وهم من أكبر الأمراء الصلاحية، والقاضي محي الدين بن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون[210].

وعرف عن المحتسب مجد الدين بن العجمي صاحب الحسبة في حلب ممارسته للاحتكار، وكان يتلاعب في الأسعار ويرفعها، حتى ثارت عليه العامة وأحرقت دار الحسبة سنة 629هـ[211]، وعرف عن رفيع الدين قاضي قضاة دمشق فساده وظلمه، وممارسته الاحتكار، أيام الملك الصالح إسماعيل، وكان يشاركه في الاحتكار والاتجار الوزير أمين الدولة السامري[212]، وقيل إنه جمع من العامة أكثر من ألف ألف دينار من أهل دمشق[213]، وكانت العامة قد ثارت عليه أثناء عمله في بعلبك فطرد منها[214]، كما مارس القاضي إبراهيم بن يحيى بن الفضل البانياسي (ت644هـ) الاحتكار، فكان يخزن الأرز حتى يرتفع سعره، فيبيعه بسعر مرتفع للتجار[215].

ولم تقف الممارسات لكبار الدولة على سياسة الاحتكار، بل وصل الأمر للتعدي على أموال الأوقاف[216]، والتلاعب بالأسعار، وكانت تتفاقم في حالة ضعف الدولة، فقد كان التجار يستغلون انشغال الدولة في حروبها وتخميدها لنار الفتن والنزاعات، ويرفعون أسعار الأقوات والمنتجات كما يشاؤون[217].

ولا شك أن إهمال الدولة مشاريع الري والزراعة ومشاريع التنمية وخاصة الزراعية، إلى جانب ضعف الإدارة المركزية، كما حدث في أواخر الدولة الأيوبية، يضاف إلى ذلك مساوئ النظام الإقطاعي، الذي لم يعد قائماً على فكرة الربح المشترك؛ لأن صاحب الإقطاع لم يكن ينتج لحاجة السوق، بل من أجل الاستهلاك والمنفعة الشخصية، ولم يعد الاهتمام بالأرض والفلاح هو أساس العمل، بقدر ما تغله الأرض من غلال، وزيادة الضرائب على الفلاحين إلى جانب إهمال المقطع لتطوير اقطاعه[218].

إجراءات الدولة:

قامت الدولة الأيوبية بمجموعة من الإجراءات والتدابير للحد من ارتفاع الأسعار، من خلال تطوير قطاعي الزراعة والتجارة، ودفع عجلة التنمية فيهما؛ فأنشأت الترع والقنوات والجسور؛ لتخفيف آثار انقطاع المطر، وحماية الطرق التجارية، وإجراء إصلاحات في النظام النقدي؛ من خلال ضبط وزن العملة، وإجراء إصلاحات في النظام القطاعي؛ من خلال إعادة توزيع الاقطاعات وتحديد مسؤوليات المقطع، بما يسهم في رفع الظلم عن الفلاحين وتحسين القطاع الزراعي، ومنعت ظاهرة الاحتكار، ولجأت أحياناً إلى

208) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص11_13، 63_64.
209) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص13.
210) العيني، عقد الجمان، ج3، ص26، 39، 40
211) ابن العديم، زبدة حلب، ص479.
212) رفيع الدين أبو حامد عبد العزيز بن إسماعيل، كان رديء العقيدة مغترا، وكان مستهزئا بأمور الشريعة، ولى قضاء دمشق في أيام صاحبها الملك الصالح إسماعيل، ثم وقع بينهم خلاف، فاعتقله وصادر أمواله، ثم نقل إلى جبل لبنان وخنق هناك فمات سنة 643هـ، الدَّلْجي، شهاب الدين أحمد بن علي المصري (ت 838هـ)، الفلاكة والمفلوكون، مصر، مطبعة الشعب، 1322هـ، ص70.
213) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج22، ص381.
214) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص271.
215) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث 641_650هـ، ص245.
216) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص15.
217) المقريزي، إغاثة الأمة، ص60.
218) السمان، أحمد، تاريخ المذاهب والنظم الاقتصادية، سوريا، المطبعة السورية، 1954م، ص23.

تحديد أسعار بعض المواد الغذائية، كاللحوم والغلال، ودعمت السلع الغذائية؛ بواسطة ضخ السلع الأساسية في الأسواق، وقدمت القروض للتجار والفلاحين، ونظمت جباية الضرائب، وأبطلت المكوس، واستعانت بالأقاليم الأخرى؛ لإرسال الغلال، واستدانت من كبار رجال الدولة والتجار.

منحت الدولة حرية التجارة والعمل للتجار، ونظمت الأسواق، ووضعت أجهزة لمراقبة معاملات البيع بما تتناسب وتنسجم مع الضوابط الشرعية لها[219]، وأقامت حراس على أبواب المدينة؛ وحراس "الخفراء" على القوافل التجارية[220]، وشيدت الأبراج والقلاع في مناطق الالتماس والثغور[221]، وأناروا الطرق، بواسطة مشاعل على قمم الجبال؛ لإرشاد القوافل التجارية ليلاً[222]، وأنشأت المؤسسات الخدماتية؛ مثل الخانات والفنادق والأسواق والوكلات؛ التي من شأنها أن تأمن سير القوافل وتحفز العمل التجاري وتشجع المستثمرين[223]، وقد وكل أمر مراقبة الأسواق والأسعار للمحتسب، وأسند إليه صلاحيات كثيرة، بما يحقق المنفعة العامة، كمنع ظاهرة الاحتكار، ومراقبة الأوزان، كما كان يجبر الباعة بتمييز السلع، كالتفريق بين أنواع اللحوم، كما كان له صلاحيات في متابعة دقة العمل وجودته[224].

ومنحت الدولة تسهيلات وامتيازات للتجار، في محاولة لاستقطابهم، ما يمكن أن نطلق عليه فتح أبواب الشام للاستثمار الاقتصادي، فقد خفضت من الضرائب لبعض التجار الأجانب الذين عقدت إماراتهم اتفاقيات تجارية كمدينة البندقية ومدينة جنوة ومارسليا وصقلية، ومنحتهم امتيازات خاصة كحقهم في إنشاء بعض المؤسسات الاقتصادية[225].

وحرص الايوبيون على بناء أسواق متخصصة للمهن والحرف والبضائع، كسوق الحرير، وسوق الصيارفة، وسوق الشوائين، وسوق الحياكة[226]؛ لخلق أجواء التنافس بين التجار، ولتسهيل عملية مراقبة البيع والشراء، ومراقبة الأسعار[227]، ووضعوا عريفاً أو نقيباً للصنعة، وكان مهمته إطلاع الدولة على أحوال السوق، وما يجلب إليه من سلع وبضائع، وما تستقر عليه الأسعار[228].

ومن أهم الإجراءات التي كانت تتخذها الدولة هي إزالة المكوس؛ لما كانت تشكله من ثقل كبير على كاهل التجار، فيما كانت مبرراً للبعض لرفع الأسعار، فقد أزال صلاح الدين المكوس التي كانت تفرض على التجار والحرفين[229]، ثم أعاد ابنه الأفضل فرضها على سوق الرقيق وسوق الدواب وسوق البطيخ والملاهي والعصير والفحم والحديد والفولاذ والزجاج[230]، ثم أزالها العزيز[231]، ولكنه منح

219) الكجراتي، جمال الدين محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفَتَّنِي (ت986هـ)، مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، ط3، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1967م، ج1، ص531.

220) ابن الفرات، تاريخ، ج4، م2، ص87.

221) ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (ت632هـ)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، حققه، يحيى زكريا عيادة، دمشق، وزارة الثقافة_ إحياء التراث، 1988م، ج1، ق2، ص56.

222) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق2، ص60.

223) Smith, J.R, Government in Latin Syria And the Commercial Privileges of Foreign Merchants, in the relation between east and west in the middle age, Edinburg, Barker, 1973, p115_116.

224) الشيزري، عبد الرحمن بن نصر الشافعي (ت589هـ)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، قام بنشره، الباز العريني، إشراف، محمد زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1946م، ص 19_36، 67، 72.

225) صبرة، عفاف سيد، العلاقات بين الشرق والغرب، علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة ما بين 1100_ 1400م، القاهرة، دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع، 1983م، ص 40_43، 86_96.

226) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج1، ق1، ص50.

227) الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص12.

228) الشيزري، نهاية الرتبة، ص12.

229) الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص121، 132؛ ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، 173.

230) النويري، نهاية الأرب، ج28، ص451.

231) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص67.

ضمان الخمور في دمشق لفخر الدين جهاركس مقابل سبعة عشر ألف دينار سنويا، ونتيجة الضائقة المالية التي كانت تعانيها الدولة، أعاد العزيز فرض بعض المكوس[232]، واستمرت حتى تولى العادل حكم دمشق، فأزالها وأزال الضمانات على الخمور، وكان متحصل المكوس من دمشق وحدها مائة ألف دينار[233]، وما أن تولى المعظم عيسى بن العادل حكم الشام حتى أعاد فرض المكوس والضمانات، ووصل ضمان الخمور بدمشق إلى ثلاثمائة ألف درهم، وأعاد النظر في حجم الإقطاعات الممنوحة للأمراء والجنود، وخفض رواتب موظفي الدولة، كما فعل مع الطبيب الرجّي يوسف بن حيدرة، فقد خفض راتبه إلى النصف، من ثلاثين ديناراً شهرياً إلى خمسة عشر ديناراً[234].

وأعاد صلاح الدين النظر في الإقطاعات وتقسيماتها، بما يحقق الفائدة والمصلحة العامة[235]، يقول المقريزي في معرض حديثه عن أعمال السلطان صلاح الدين سنة 577هـ: " استمر انتصاب السلطان صلاح الدين في هذه السنة للنظر في أمور الاقطاعات، ومعرفة عبرها والنقص منها، والزيادة فيها وإثبات المحروم وزيادة المكسور"[236]، ومسحت جميع الأراضي وتحديد كمية خراجها وأسماء القرى وأسماء ملاكها، وما تقوم به من أرزاق، وعليه حدد ما تقدمه الإقطاعات من عساكر وأموال، وكان يتم تسجيل تلك الإقطاعات وأرزاقها ومغلها في ديوان خاص[237]، وأمر الملك المعظم بكشف ضياع الشام ومسحها، فوجدها ألفي قرية، منها ألف وستمائة أملاك لأهلها، وأربعمائة أملاك سلطانية (إقطاعات)[238].

واهتم كذلك الأيوبيون بإنشاء الجسور والترع والطرق؛ لحفظ البلاد من الفيضانات والتقليل من آثارها، وكان ينفق عليها عن طريق الديوان السلطاني، وعن طريق صاحب الإقطاع، وكان لها ضرائب مقررة كل سنة[239]، وكانت الدولة تقرض الفلاحين لإعانتهم وإبقائهم على أرضهم، وكان الهدف من تلك القروض والمساعدات لشرائهم الدواب وأدوات الحرث، وقد خصصت بعض الأوقاف لهذه الغاية، فقد أمر الأشرف أن يصرف مغل وقف مدرسته في مساعدة الفلاحين وإقراضهم[240]، وأجبرت الدولة الفلاحين الذين هربوا من الشام في سنوات القحط، أو من جراء تعسف أصحاب الاقطاعات، بالعودة إليها[241].

واستصلحت الدولة الكثير من الأراضي، فقد أحضر الملك المعظم الأشجار والثمار إلى الشوبك وعجلون والكرك، وأصبحت تلك المناطق تضاهي دمشق في بساتينها، وساق الملك الظاهر بن صلاح الدين إلى حلب نهراً يدعى نهر قويق[242]، وغرم على ذلك أموالاً كثيرة، فاستصلحت الكثير من الأراضي، ووزع الماء عبر قنوات إلى كافة المنازل والمؤسسات والبساتين[243].

واستخدمت الدولة السنة الخراجية، لضبط عملية جباية الأراضي، حيث تم تحويل سنة 598هـ إلى سنة 600هـ، وألغيت السنة 599هـ، وحولت السنة 631هـ إلى 633هـ، وألغيت السنة632هـ، ذلك أن استحقاق الخراج وجبايته مرتبط بالمزروعات والثمار، وهي منوطة بالسنين الشمسية، واستخراج الخراج في الملة الإسلامية منوط بالتاريخ الهجري، لهذا أحيانا يكون استخراج الخراج في

232) النويري، نهاية الأرب، ج28، ص451.
233) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص169.
234) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث621_ 630هـ، ص90.
235) العيني، عقدة الجمان، ج2، ص266.
236) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج1، ص163.
237) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص309.
238) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص177.
239) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص515_516.
240) الحموي، محمد ياسين، دمشق في العصر الأيوبي، دمشق، المطبعة الهاشمية، 1946م، ص29.
241) البنداري، سنا البرق الشامي، ص195.
242) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص110، 121.
243) ابن واصل مفرج الكروب، ج3، ص187؛ ابن سباط، تاريخ ابن سباط، ج1، ص246.

بداية العام الهجري وأحيانا أواسطه أو أواخره، والفرق بين السنة الشمسية والهجرية أحد عشر يوماً، وهذا يعني أن كل ثلاث وثلاثين سنة يفرق سنة بالتقريب، والحاصل أنه إذا مضى ثلاث وثلاثون سنة، حولت السنة الثالث والثلاثون إلى السنة التي تلي السنة التي بعدها، وهي السنة الخامسة والثلاثون[244].

واتخذ الأيوبيون مجموعة من الإصلاحات النقدية، لضبط حركة السوق والتجارة، والتحكم بالقيمة الشرائية للعملات، حيث استطاع صلاح الدين تثبيت العملة الأيوبية في المعاملات الرسمية والتجارية، حتى أصبح التجار الأوروبيون والمغاربة يشترطون في تعاملاتهم النقدية الدينار أو الدرهم الأيوبي[245]. ولحل أزمة ندرة الذهب والفضة، دفعهم إلى ضرب دراهم على وزن أقل ونسبة فضة أقل، وأضيف إليها كميات من النحاس، كانت أحياناً تصل إلى النصف والثلثين، ثم دفع الدولة إلى إصدار عملة القراطيس والفلوس النحاسية كأحد العملات المستخدمة في الأسواق[246]؛ استجابة لحاجة الناس إلى ما هو أقل من الدرهم، لشراء السلع التي ثمنها دون الدرهم.

وكانت الدولة تطرح الغلال في الأسواق بسعر أقل، ما يمكن أن نشبهها في وقتنا الحاضر بسياسة دعم السلع، حيث كانت تخزن تلك السلع في المخازن السلطانية[247]، المنتشرة في المدن الشامية، مثل الكرك والشوبك وبلاد الساحل، ويتم توزيعها على المناطق المنكوبة[248].

كما كانت الدولة تنقل الغلال من مصر إلى البلاد الشامية في سنوات الغلاء، ففي عام 571هـ تعرضت منطقة حوران وغوطة دمشق لاجتياح من الفئران، فأفسدت الكثير من الغلال؛ ما دفع الدولة لتقديم معونات مستعجلة، حيث اتجهت قوافل حكومية محملة بالقمح والشعير والعدس والحمص والباقلاء، بيع الحمل الواحد بدينار واحد فقط[249]، وهو مقارنة بوزن الحمل الذي لا يقل عن 600 رطل أو ما لا يقل عن 220كغم مبلغ رمزي، وفور تسلم الملك العزيز عثمان الحكم خلفا لأبيه السلطان صلاح الدين، أمر بنقل الغلال للقدس، وعجل لها بعشرة آلاف دينار، تصرف في مجالات حيوية وضرورية[250].

وكان الأيوبيون يفرضون على أصحاب الإقطاع تقديم معونات من إقطاعاتهم إلى المناطق المنكوبة، فقد اشترط على إقطاع العادل تقديم ستة آلاف غرارة من القمح للقدس من متحصل إقطاعه في الكرك والشوبك والبلقاء[251]، واشترط على صاحب اقطاع نابلس تقدين ثلث متحصله من الغلات لمدينة القدس، كما أمر صلاح الدين بنقل غلال من البلقاء، لدعم فلاحي الغوطة وإغاثة الناس المتضررين من نقص الأقوات، وأمر أيضاً بنقل غلال من مصر لعسقلان لإعادة إعمارها بعد هدمها[252]، وفي عام 586هـ/ 1190م أرسلت بيروت بطسة(سفينة حربية كبيرة) محملة بأربعمائة غرارة من القمح والشعير، إضافة إلى الأغنام واللحوم، والزيت إلى عكا المحاصرة من قبل الفرنجة، كما أرسلت من مصر سبع بطس محملة بالغلال؛ لإعانة عكا[253].

244) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص59_66.

245) Goitein, op.cit, v1, p238_239.)

246) رمضان، عاطف منصور، النقود الإسلامية وأهميتها في دراسة التاريخ والآثار والحضارة الإسلامية، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، 2008م، ص96.

247) البيلي، محمد بركات، الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر الإسلامية، القاهرة، د.ن، 1986، ص19، 81، 91.

248) المقريزي، إغاثة الأمة، ص70

249) ابن الأزرق الفارقي، القاضي عماد الدين أحمد بن يوسف (ت577هـ) تاريخ ابن الأزرق، تحقيق، عمر عبد السلام تدمري، صيدا، المكتبة العصرية، 2016م. ص332.

250) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج4، ص239.

251) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص312.

252) الأصفهاني، الفتح القسي، ص344، 358.

253) الأصفهاني، الفتح القسي، ص249، 271.

وقام أتابك شهاب الدين طغربل والي حلب والوصي على عرش الملك العزيز بن الظاهر سنة 628هـ/1230م بالعديد من الإجراءات لمواجهة حالة الغلاء، والتي قللت من أثر الغلاء إلى حد أن عامة الناس لم تشعر بأثر الغلاء، فقد أخرج الغلات من المخازن ووزعها على الأسواق بأسعار رمزية، ورفع أجرة العاملين، وقدم مساعدات مالية[254].

وكانت الدولة أيضاً تشتري البضاعة من التجار الذين يعانون من كساد بضاعتهم، يقول الأصفهاني:" إن بعض التجار كانت بضاعتهم بباقير رفيعة حالها نفاق ولا له في إخراجها ارتفاق، فحملها إلى الخزانة السلطانية وهي من مائة قطعة، فقال السلطان: خذوها واكتبوا أثمانها إلى مصر، فاشتريت منه وكتبت له بذلك توقيع"[255]، وكان العادل يشتري ما لدى التجار والناس من سلع وأقوات زائدة أثناء الأزمات، ثم يبيعها بأسعار رخيصة للعامة، ووفق حاجاتهم اليومية، وكان يمنع الاحتكار، ويعاقب كل تاجر يحتكر سلعة[256].

كما كان الأيوبيون يجرون تعويضات للخسائر التي يتعرض لها العامة والعساكر والتجار على حد سواء، فيذكر أن السلطان صلاح الدين قد أطلق أكثر من اثني عشر ألف خيل عوضا عن الخيول التي نفقت بسبب حصار عكا ما بين الأعوام 585_ 587هـ/1189_1191م[257]، كما تم تعويض تجار قافلتي 585هـ/1189م، و588هـ/1192م عن الخسائر التي تكبدوها نتيجة اعتداءات الفرنجة عليهما، ويذكر أن الملك المظفر تقي الدين عمر نائب السلطان صلاح الدين على دمشق، أُبلغ عن حريق في إحدى المحلات التجارية وأن صاحبها ناله الفقر، وخسر أموالاً كثيرة، فقدم له مائتي دينار مصري[258]، و ذكر أن تاجرا يهودياً حمل عشرين حملاً من السكر من الإسكندرية إلى عكا، ولما وصل عكا صادرها جنود صلاح الدين، وقالوا هذا ملك للسلطان، فاشتكى لصلاح الدين، فأمر فوراً بدفع ثمن الحمل للتاجر اليهودي[259].

ولأجل دعم خزينة الدولة، فقد أصدر العادل أوامره بمنح ضمان لجمع أموال الأوقاف[260]، أي خصخصة بعض مؤسسات الدولة ومواردها، وبذلك يضمن عدم الاعتداء على تلك الأموال، إلى جانب الحصول على مبلغ ثابت، فقد ضمنت أوقاف المساجد، كالمسجد الأموي، الذي ضمنه شمس الدين التيتي، ثم تولاها الرشيد ابن أخته، بزيادة في الضمان بلغ ثلاث آلاف دينار[261]، إلى جانب ضمانات الأوقاف، اضطرت الدولة إلى إقرار ضمان الخمور من عهد الأفضل، الذي أبطلها لاحقاً العادل[262]، ثم عاد الملك المعظم عيسى فرضها[263]، ومنح الملك الظاهر ضمان الخمور في حلب، وكان الحاصل منها في حلب مائتي ألف درهم في السنة، وإن أضيف إليها ما يستقبل في السنة من أسعار الكروم، يصبح المبلغ ألف ألف درهم، إلا أن ابنه العزيز وأتابكه طغربل قد أوقف العمل بها، فرخصت أسعار الكروم[264].

---

254) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص416.

255) البنداري، سنا البرق الشامي، 286.

256) المقريزي، إغاثة الأمة، 104_106.

257) الأصفهاني، الفتح القسي، ص 384؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج22، ص18.

258) البنداري، سنا البرق الشامي، ص213، 282

259) ابن العبري، جمال الدين غريغورس بن هارون بن توما الملطي (ت685هـ)، تاريخ الزمان، نقله إلى العربية، أسحق أرملة، قدم له، جان فوريس فييه، بيروت، دار المشرق، 1991م، ص226.

260) ابن العديم، زبدة حلب، ص398.

261) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص50.

262) العيني، عقد الجمان، ج3، ص292، 330؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص153.

263) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص69، 84_ 88.

264) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت626هـ)، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، اعتنى بنسخه وتصحيحه، س. مرجليوت، بيروت، دار صادر، د.ت، ج5، ص489.

ولجأت الدولة إلى سياسة التسعير، فقد ذكر أنه عام 629هـ/1232م، كان سعر الخبز في حلب مرتفع، حيث بلغ الرطل عشرة قراطيس، ثم انحط السعر حتى بيع الرطل بخمسة قراطيس ونصف، إلا أن الخبازين اعترضوا على ذلك، فأمر المحتسب مجد الدين بن العجمي برفع السعر إلى ستة قراطيس للرطل الواحد[265]، وسعر الملك الكامل سنة627هـ/1230م الغلال والأقوات، كالقمح والشعير والخبز[266].

كما أنها كانت تلجأ أحيانا لمعالجة السبب المباشر للغلاء، فيذكر أنه أثناء تعرض الشام لاجتياح الجراد في عام 619هـ/ 1222م، فأهلك الزرع والشجر والثمر والنخيل، فساد الغلاء في معظم الشام؛ لقلة الأقوات والغلال[267]، وقد حاول الملك المعظم اتخاذ مجموعة من الإجراءات لوقف زحف الجراد، فأشير عليه بطائر يدعى السمرمر يأكل الجراد يتواجد في بلاد الفرنجة، فأرسل قائد شرطته لاستحضاره[268]، وخلال انتشار الأمراض كان الدولة تفرض الحجر الصحي حتى لا ينتشر المرض في مدن أخرى[269].

كان لبعض العلماء دور في إجبار التجار والباعة على تخفيض أسعار سلعهم لما فيها من تخفيف الشدة على الناس، وإظهار حكم الاحتكار، ومعارضة ضمانات الخمور والمكوس، ومعارضة استخدام العملات الرديئة أو النحاسية، وكانوا سبباً في إجبار الدولة على الوقف بالعمل بالقراطيس السود، ومنهم سبط ابن الجوزي، عبد الله اليونيني، وفخر الدين بن عساكر[270].

أما موقف العامة، فقد عبرت الطبقات الدنيا عن رفضها لحالات الغلاء وسوء السياسات للولاة ، واتخذت مظاهر الرفض ما بين الشكوى والثورة والاعتداء على بيت المال[271]، فقد ثارت العامة في حلب على المحتسب مجد الدين بن العجمي؛ بسبب ارتفاع الأسعار في المدينة وسياسته الاحتكارية سنة 629هـ/ 1232م[272]، واشتكى أهل الرقة من واليها قطب الدين ينال بن حسان؛ بسبب كثرة المكوس التي فرضها على الناس، فعزله صلاح الدين، كما عزل الأمير أبي الهيجا عن نصيبين، بسبب اعتراض العامة على سياسته[273]، كما ثار أهل نابلس على أمير المشطوب، واشتكوه لصلاح الدين، فرتب السلطان أمورها، فهدأت العامة[274].

واجهت تلك الإجراءات والإصلاحات الكثير من الصعوبات والمعيقات التي كانت تحول بينها وبين تنفيذها على أرض الواقع، أو استمراريتها، ولعل أبرزها؛ الأوضاع السياسية في بلاد الشام، إلى جانب عجز الميزانية العامة عن تنفيذ مشاريع ريادية إنتاجية ونهضوية، إلى جانب أثر النظام الإقطاعي، إلى جانب قضية حكم التسعير، فقد أجمع الفقهاء بعدم جواز التسعير، بمعنى أن يوضع سعر لأهل السوق لا يسمح لهم بتجاوزه مع قيامهم بما عليهم من واجب[275]، إلا في حالات نادرة، تقتضيها مصلحة الأمة، كثبوت

265) ابن العديم، زبدة الحلب، ص479.

266) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص131.

267) العيني، عقد الجمان، ج4، ص84؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص395.

268) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص436

269) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص185.

270) كرد علي، محمد عبد الرزاق (ت1372هـ)، خطط الشام، دمشق، مكتبة النوري، 1983م، ج5، ص71.

271) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص69.

272) ابن الحلبي، رضى الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف الحلبي الحنبلي (ت971هـ)، الزبد والضرب في تاريخ حلب، حققه، محمد التونجي، الكويت، منشورات مركز المخطوطات والتراث، 1988م، ص43.

273) ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ص169، 174.

274) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج22، ص10؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص354.

275) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ)، الحاوي الكبير في فقه مذهب الشافعي، شرح مختصر المزني، تحقيق، علي معوض، عادل عبد الجواد، قدم له، محمد بكر إسماعيل، بيروت، دار الكتب العلمية، 1994م، ج5، ص407_409.

ممارسة أهل السوق للاحتكار[276]، أو حصر البيع بفئة معينة[277]، أو تعدي التجار ثمن السلع تعدياً فاحشاً[278]، أو البيع بسعر أقل مما هو عليه أهل السوق، أو إذا تبين حدوث تواطؤ بين التجار، أو حدوث مجاعات[279].

الخاتمة:

أثبت الدراسة أن الأسعار في بلاد الشام لم تكن ثابتة، فقد تميزت بالتأرجح، كما أنها تباينت بين مدنها، فأسعار السلع في دمشق وحلب والقدس كانت أكثر من غيرها، كما أنها كانت أكثر عرضة للارتفاع؛ كونها مراكز للحكم الأيوبي، وتعرضها للحصار أو الصراع السياسي، أو الاحتلال الفرنجي، كما أن اختلاف تضاريس ومناخ المدن الشامية، وحجم الكثافة السكانية فيها، واختلاف المعاملات التجارية، كالمكاييل والأوزان، ساهم في تباين الأسعار بين مدن الشام.

شكلت مجموعة من العناصر في تحديد قيمة السلعة وسعرها في الأسواق الشامية؛ كنسبة ربح التاجر، ونفقات الشحن والنقل والتغليف والتخزين، وحركة النشاط التجاري، ونسبة الضرائب المفروضة على البضائع، إلى جانب دور الدولة في الاقتصاد الشامي وإجراءاتها.

لعبت مجموعة من الظروف في تذبذب أسعار بلاد الشام، خاصة السلع الأساسية؛ كالقمح والشعير والأرز واللحوم، فقد تأثرت مؤشرات الارتفاع والانخفاض للسلع بالظروف الطبيعية، كتعرض بلاد الشام لحالات القحط والجدب، أو شدة الأمطار وحدوث السيول؛ ما أثر على الإنتاج الزراعي، وحركة التجارة الداخلية والخارجية، وأدى انتشار الجراد والفئران إلى تخريب المحاصيل الزراعية ونفاقها؛ ما انعكس على نسبة العرض للطلب في الأسواق الشامية.

وتعرضت بلاد الشام خلال الحكم الأيوبي لعدة هزات أرضية؛ نتج عنها تهديم مباني تجارية، وتعطل التجارة، وتخريب الجسور والترع والقنوات؛ ما تسبب في تراجع حجم الإنتاج الزراعي، وانشغلت الدولة عن مشاريعها الريادية بالقيام بترميم القلاع والأسوار التي تهدمت، جراء تلك الزلازل.

وانتشرت خلال الحكم الأيوبي في بلاد الشام الأمراض والأوبئة، كالطاعون والكوليرا والسرسام؛ انعكس ذلك على أسعار بعض المنتجات والسلع التي تدخل في تكوين الأدوية، ووصفت على أنها علاج للمرض، أو التخفيف من آثار الألم، وارتفعت أجور الأطباء، واستغل العطارون تلك الظروف؛ فرفعوا أسعار النباتات والوصفات العشبية، كما أدى انتشار الأمراض في حدوث خلل لقانوني العرض والطلب؛ نتيجة هجرت الألاف من الناس من المناطق المنكوبة.

وساهمت الظروف السياسية والحربية في تذبذب الأسعار؛ فعلى صعيد الحروب الفرنجية، اشتدت وطأتها على الأراضي الشامية، وتسببت في تعطيل التجارة في أكثر من مناسبة، وهرب الفلاحون من أراضيهم، كما كرس الفرنجة سياستهم في ضرب مقومات الاقتصاد الشامي، سواء من خلال الإغارة على القوافل التجارية، وقطع التواصل بين الشام ومصر، أو من خلال خلق التبعية الاقتصادية بواسطة النقود الأوروبية.

وشكلت الصراعات والنزاعات داخل الأسرة الأيوبية في بلاد الشام ثقلاً كبيراً على الأوضاع الاقتصادية؛ بسبب ما رافق ذلك الصراع من تخريب وتدمير للأراضي الزراعية، وقطع المياه عن المدن؛ فتعطلت عجلة التنمية، واستغل الإقطاعيون انشغال الملوك في حروبهم، فبسطوا أيديهم على الأراضي الزراعية، وفرضوا ضرائب باهظة على الفلاحين؛ ما أدى إلى هروبهم إلى المدن وترك أراضيهم.

---

276) ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، ص35؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص12.

277) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الحنبلي الدمشقي (ت728هـ)، مجموعة الفتاوي، تحقيق، عبد الرحمن قاسم، المملكة العربية السعودية، مجمع الملك فهد 1995م، ج28، ص77.

278) ابن القيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن سعد الزرعي الدمشقي (ت751هـ)، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق، عصام حرستاني، حسان عبد المنان، بيروت، دار الجيل، 1998، ص357.

279) ابن تيمية، مجموع الفتاوي، ج28، ص76_78.

واجتاح المغول البلاد الإسلامية، فأسقطوا الخلافة العباسية في بغداد، وقطعوا التواصل بين العراق والشام، ثم اجتاحوا الشام، ورافق ذلك تخريب الأراضي الزراعية وتدمير البنية التحتية، وقتل الناس والفقهاء وكبار رجال الدولة، ونهبوا ما لدى الدولة من أموال، حتى خلت خزائن الشام من الدينار والدرهم، وعدمت الأقوات، وارتفعت الأسعار.

وكانت لسياسة الاحتكار والاكتناز والاتجار التي لجأ إليها ملوك بني أيوب وكبار رجال الدولة، الأثر الواضح على حركة الأسعار، إلى جانب سوء إدارة بعض الوزراء، وفساد جهاز الحسبة، وانتشار الرشوة، التي استغلها التجار، فرفعوا أسعار سلعهم.

وأدى التلاعب في عيار النقود ووزنها وأسعار صرفها وانتشار العملات المزيفة؛ لخفض قيمتها الشرائية، وفقدان ثقة العامة بها؛ انعكس ذلك على أسعار السلع الغذائية، التي شهدت ارتفاعاً كبيراً، في حيت تراجعت أسعار السلع الثانوية.

قامت الدولة الأيوبية بمجموعة من الإجراءات والتدابير للحد من ارتفاع الأسعار، وتحسين البيئة الاقتصادية، من خلال تطوير قطاعي الزراعة والتجارة، ودفع عجلة التنمية فيهما؛ فأنشأت الترع والقنوات والجسور؛ لتخفيف آثار انقطاع المطر، وحماية الطرق التجارية، وإجراء إصلاحات عامة في النظام النقدي؛ من خلال ضبط وزن العملة، وإجراء إصلاحات في النظام القطاعي؛ من خلال إعادة توزيع الاقطاعات وتحديد مسؤوليات المقطع، بما يسهم في رفع الظلم عن الفلاحين وتحسين القطاع الزراعي.

ومنعت الدولة ظاهرة الاحتكار، ولجأت أحياناً إلى تحديد أسعار بعض المواد الغذائية، كاللحوم والغلال، ودعم السلع الغذائية؛ بواسطة ضخ السلع الأساسية في الأسواق المخزنة في المخازن السلطانية، وتقديم القروض والمساعدات والتعويضات المالية للتجار والفلاحين، وتنظيم جباية الضرائب، وإبطال المكوس، والاستعانة بالأقاليم الأخرى؛ لإرسال الغلال، والاستدانة من كبار رجال الدولة والتجار، ما يشبه اليوم بالقروض البنكية.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربيَّة.

1. ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن المكارم محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت630هـ). (1993م). *الكامل في التاريخ*. راجعه وصححه: محمد الدقاق. بيروت: دار الكتب العلمية.
2. ابن الأزرق الفارقي، القاضي عماد الدين أحمد بن يوسف (ت577هـ). (2016م). *تاريخ ابن الأزرق*. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. صيدا: المكتبة العصرية.
3. ابن اياس، محمد بن شهاب الدين بن أحمد بن إياس أبو البركات الحنفي (ت930هـ). (2005م). *بدائع الزهور في وقائع الدهور*. القاهرة: مكتبة مدبولي.
4. ابن أيبك الدواداري، أبي بكر بن عبد الله بن أيبك (ت ق8هـ). (1972م). *كنز الدرر وجامع الغرر، الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب*. تحقيق: سعيد عاشور. القاهرة: مكتبة عيسى الحلبي.
5. ابن بعرة، منصور بن بعرة الذهبي الكاملي (ت1135هـ). (1966م). *كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية*. تحقيق: عبد الرحمن فهمي، الجمهورية العربية المتحدة: دار إحياء التراث الإسلامي.
6. ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين اليشبقاوي الظاهري (ت874هـ). (1992م). *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*. ط1، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.
7. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ). (د.ت). *الحسبة في الإسلام، أو وظيفة الحكومة الإسلامية*. بيروت: دار الكتب العلمية.
8. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحنبلي الدمشقي (ت728هـ). (1416هـ). *مجموعة الفتاوي*. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

9. ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي القاهري (ت809هـ). (1999م). *نزهة الأنام في تاريخ الإسلام*. دراسة وتحقيق: سمير طيارة. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.

10. ابن حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت1067هـ). (1941م). *كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون*. بغداد: مكتبة المثنى.

11. ابن الحلبي، رضى الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف الحلبي الحنبلي (ت971هـ). (1988م). *الزبد والضرب في تاريخ حلب*. حققه: محمد التونجي. الكويت: منشورات مركز المخطوطات والتراث.

12. ابن الساعي، أبو طالب علي أنجب بن عثمان بن عبد الله (ت674هـ). (1934م). *الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السر*. تحقيق: مصطفى جواد. بغداد: المطبعة السريانية.

13. ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر المغربي (ت بعد 926هـ). (1993م). *صدق الأخبار، أو تاريخ ابن سباط*. تحقيق: عمر تدمري، طرابلس: مطبعة جروس برس.

14. ابن سينا، أبو علي شرف الملك الحسين بن عبد الله بن الحسن بن سينا البلخي البخاري (ت428هـ). (1999م). *القانون في الطب*. حققه ووضع حواشيه: مجمد أمين الضناوي. بيروت: دار الكتب العلمية.

15. ابن شاهنشاه، تقي الدين المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي (ت617هـ). (د.ت). *مضمار الحقائق وسر الخلائق*. تحقيق: حسن حبشي. القاهرة: عالم الكتب.

16. ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (ت632هـ). (1988م). *الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة*. حققه: يحيى زكريا عيادة. دمشق: وزارة الثقافة_ إحياء التراث.

17. ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (ت632هـ). (1994م). *النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، سيرة صلاح الدين*. تحقيق: جمال الشيال. القاهرة: مكتبة الخانجي.

18. ابن طولون، محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي الحنفي (ت953هـ). (2013م). *القلائد الجوهرية في تاريخ الصلاحية*. تحقيق: محمد الحسين. قدم له: مازن مبارك. عمان: دار أروقة للدراسات والنشر.

19. ابن العبري، جمال الدين غريغورس بن هارون بن توما الملطي (ت685هـ). (1991م). *تاريخ الزمان*. نقله إلى العربية: أسحق أرملة، قدم له: جان فوريس فييه. بيروت: دار المشرق.

20. ابن العديم، كمال الدين بن العديم بن عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت660هـ). (1988م). *بغية الطلب في تاريخ حلب*. تحقيق: سهيل زكار. بيروت: دار الفكر العربي للطباعة والنشر.

21. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة (ت660هـ). (1996م). *زبدة الحلب في تاريخ حلب*. وضع حواشيه: خليل منصور. بيروت: دار الكتب العلمية.

22. ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العكري الحنبلي(ت1089هـ). (1989م). *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*. تحقيق: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دمشق: دار ابن كثير.

23. ابن العميد، الشيخ عبد الله بن جرجس بن أبي ياسر بن أبي المكارم بن أبي الطيب (ت671هـ). (د.ت). *اخبار الأيوبيين*. القاهرة: مكتبة الثقافة.

24. ابن الفرات، شمس الدين بن ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المصري (ت807هـ). (1970م). *الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك، المعروف بتاريخ ابن الفرات*. حققه وعلق عليه. حسن الشماع، البصرة، د.ن.

25. ابن فضل العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله(ت749هـ). (2010م). *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*. تحقيق: كامل الجبوري. بيروت: دار الكتب العلمية.

26. ابن الفوطي، أبي الفضل عبد الرازق بن أحمد بين أبي المعالي الشيباني(ت723هـ). (1351هـ). *الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة*. تقديم: محمد رضا، مصطفى جواد. بغداد: المكتبة العربية.

27. ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنبلي الدمشقي(ت751هـ). (2004م). *الطب النبوي*. تحقيق: حامد الطاهر. القاهرة: المكتب الثقافي للنشر والتوزيع.

28. ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنبلي الدمشقي (ت751هـ). (1998م). *الطرق الحكمية في السياسة الشرعية*. تحقيق: عصام حرستاني، حسان عبد المنان. بيروت: دار الجيل.

29. ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت744هـ). (2002م). *البداية والنهاية*. خرج أحاديثه: أحمد شعبان، محمد عيادي. القاهرة: مكتبة الصفا.

30. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين الأنصاري محمد بن مكرم بن على الإفريقي (ت711هـ). (1414هـ). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.

31. ابن نظيف الحموي، أبي الفضائل محمد بن علي بن نظيف(ت630هـ). (1981م). *التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان*. تحقيق: أبو العيد دودو، مراجعة عدنان درويش. دمشق: مطبعة الحجاز.

32. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ). (1957م). *مفرج الكروب في أخبار بني أيوب*. تحقيق: جمال الشيال، حسنين ربيع، سعيد عاشور. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.

33. ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (ت749هـ). (1996م). *تاريخ ابن الوردي*. بيروت: دار الكتب العلمية.

34. ابن يحيى، صالح بن سيف الدين يحيى بن صالح بن الحسين التنوخي (ت نحو850هـ). (1898م). *تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بنى العرب*. تحقيق: لويس شيخو اليسوعي. بيروت: المطبعة الكاثوليكية.

35. أبو شامة، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي (ت665هـ). (2002م). *تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجري، المعروف بالذيل على الروضتين*. وضع حواشيه وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية.

36. أبو شامة، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي (ت665هـ). (2202م). *الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية*. تحقيق: إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية.

37. أبو الفداء، المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت 732هـ). (1997م). *المختصر في أخبار البشر أو تاريخ أبي الفداء*. علق عليه ووضع حواشيه: محمود ديوب، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

38. أبو الفضل الدمشقي، جعفر بن مسلم بن علي الدمشقي (ت القرن 6هـ). (1999م). *الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها*. اعتنى به وقدم له وعلق عليه: محمود الأرناؤوط، ط1، بيروت، دار صادر.

39. البدري، أبي البقاء عبد الله بن محمد المصري الشافعي (ت نحو 894). (1980م). *نزهة الأنام في محاسن الشام*. بيروت: دار الرائد العربي.

40. البنداري، الفتح بن علي بن محمد (ت 622هـ). (1979م). *سنا البرق الشامي، مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني*. تحقيق: فتحية النبراوي. القاهرة: مكتبة الخانجي.

41. الجوبري، عبد الرحيم بن عمر بن أبي بكر جمال الدين الدمشقي (ت ق7هـ)، (1998م). *المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار*. دمشق: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات.

42. الحموي، محمد ياسين. (1946). *دمشق في العصر الأيوبي*. دمشق: المطبعة الهاشمية.

43. الدَّلْجي، شهاب الدين أحمد بن علي المصري (ت 838هـ). (1322هـ). *الفلاكة والمفلوكون*. مصر: مطبعة الشعب.

44. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت748هـ). (1993م). *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*. تحقيق: عمر عبد السلام التدمري. بيروت، دار الكتاب العربي.

45. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت748هـ). (1993م). *سير أعلام النبلاء*. تحقيق: مجموعة من المحققين. إشراف: شعيب الأرناؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة.

46. سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر يوسف قزأوغلي بن عبد الله (ت654هـ). (2013م). *مرآة الزمان في تواريخ الأعيان*. تحقيق: إبراهيم الزيبق وآخرون. دمشق: دار الرسالة.

47. السرخسي، شمس الأئمة محمد بن أحمد بن أبي سهل(ت483هـ). (1993م). *المبسوط*. بيروت: دار المعرفة.

48. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري(ت911هـ). (1987م). *كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة*. تحقيق: محمد كمال الدين. بيروت: عالم الكتب.

49. الشريف الإدريسي، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الحموي (ت559هـ). (1989م). *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*. بيروت: عالم الكتب.

50. شيخ الربوة، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن ابي طالب الدمشقي (ت727هـ). (1865م). *نخبة الدهر في عجائب البر والبحر*. تحقيق وتصحيح: مهران ميخائيل. بطرسبورغ: مطبعة الاكاديمية.

51. الشيزري، عبد الرحمن بن نصر الشافعي (ت589هـ). (1946م). *نهاية الرتبة في طلب الحسبة*. قام بنشره: الباز العريني. إشراف: محمد زيادة. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

52. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت764هـ). (1990م). *تحفة ذوي الألباب*. تحقيق: إحسان خلوصي، زهير حمدان. بيروت: دار صادر.

53. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت764هـ). (2000م). *الوافي بالوفيات*. تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

54. الصوري، وليم (ت581هـ). (1995م). *الحروب الصليبية*. ترجمة وتعليق: حسن حبشي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

55. عبد اللطيف البغدادي، موفق الدين ابن اللباد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد (ت629هـ). (1998م). *رحلة عبد اللطيف البغدادي، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث والمعاينة بأرض مصر*. إشراف: عبد الرحمن الشيخ. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

56. العماد الأصفهاني، عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني (ت597هـ). (1987م). *البرق الشامي*. تحقيق: فالح حسين. عمان: مؤسسة عبد الحميد شومان.

57. العماد الأصفهاني، عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني (ت597هـ). (2011م). *البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان*. تحقيق: محمد الطعاني. إربد: مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع.

58. العماد الأصفهاني، عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني (ت597هـ). (2003م). *الفتح القسي في الفتح القدسي، حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس*. قدم له ووضع حواشيه وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية.

59. العيني، أبو محمد بدر الدين العيني الحنفي محمود بن أحمد بن موسى الحافظ (ت855هـ). (2003م). *عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، العصر الأيوبي*. تحقيق ودراسة: محمود رزق. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.

60. الغساني، الأشرف إسماعيل بن العباس (ت803هـ). (1975م). *العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك*. تحقيق: شاكر عبد المنعم. بغداد: دار البيان.

61. الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن غنيم البصري(ت170هـ). (د.ت). *كتاب العين*. تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي. د.م، دار ومكتبة الهلال.

62. القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القاهري (ت821هـ). (1987م). *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*. شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية.

63. الكجراتي، جمال الدين محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفَتَّنِي (ت986هـ). (1967م). *مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار*. ط3. د.م: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية.

64. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ). (1994م). *الحاوي الكبير في فقه مذهب الشافعي، شرح مختصر المزني*. تحقيق: علي معوض، عادل عبد الجواد. قدم له: محمد بكر إسماعيل. بيروت: دار الكتب العلمية.

65. المخزومي، أبو الحسن علي بن أبي محمد بن يوسف(ت585هـ). (1986م). *المنتقى من المنهاج في علم خراج مصر*. نشره وحققه: كلود كاهن. مراجعة: يوسف راغب. القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.

66. المقريزي، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي ابن عبد القادر بن محمد العبيدي (ت845هـ). (2007م). *إغاثة الأمة بكشف الغمة*. دراسة وتحقيق: كرم فرحات. ط1. القاهرة: عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية.

67. المقريزي، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي ابن عبد القادر بن محمد العبيدي (ت 845هـ). (1997م). *السلوك لمعرفة دول الملوك*. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية.

68. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت733هـ). (1992م). *نهاية الأرب في فنون الأدب*. القاهرة: مركز تحقيق التراث.

69. اليافعي، أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني (ت768هـ). (1997م). *مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان*. وضع حواشيه: خليل منصور. بيروت: دار الكتب العلمية.

70. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت626هـ). (د.ت). *إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء*. اعتنى بنسخه وتصحيحه: س. مرجليوت. بيروت: دار صادر.

71. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت626هـ). (1995م). *معجم البلدان*. بيروت: دار صادر.

72. اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد (ت726هـ). (1992م). *ذيل مرآة الزمان*. القاهرة: دار الكتب الإسلامي.

ثانياً: المراجع العربيَّة.

1. آشتور، آ. *التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق التوسط في العصور الوسطى* (1985م). (ترجمة: عبد الهادي عبلة). مراجعة: أحمد سبانو. دمشق: دار قتيبة.
2. الأوتاني، أحمد(2007م). *دمشق في العصر الأيوبي. دراسة سياسية، اقتصادية، اجتماعية، ثقافية*. تقديم: سهيل زكار. دمشق: التكوين للتأليف والترجمة والنشر.
3. باركر، أرنست(1967م). *الحروب الصليبية*. (نقله إلى العربية: السيد الباز العريني). بيروت: دار النهضة العربية.
4. براو، يوشع (2001م). *الاستيطان الصليبي في فلسطين "مملكة بيت المقدس"*. (ترجمة: عبد الحافظ البنا). القاهرة: دار عين للدراسات.
5. البيلي، محمد بركات (1986م). *الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر الإسلامية*. القاهرة، د.ن.

6. البنا، عبد الحافظ (2007م). *أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية*. القاهرة: دار عين للدراسات.
7. حسين، حسن عبد الوهاب (1997م). *مصر وأمن البحر الأحمر في عصر الحروب الصليبية*، في: مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية. سلسلة دراسات في تاريخ الحركة الصليبية. عدد3. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
8. الحويري، محمود (1979م). *الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر عصر الحروب الصليبية*. القاهرة: دار المعارف.
9. الدريني، محمد فتحي (1992م). *الفقه الإسلامي المقارن مع المذاهب*. دمشق: منشورات جامعة دمشق.
10. الديواني، مصطفى (1969م). *حديث في الطب*. القاهرة: دار الكاتب العربي.
11. رضوان، طه عبد العليم (1984م). *في الجغرافية العامة*. القاهرة: مكتبة الانجلو.
12. رمضان، عاطف منصور (2008م). *النقود الإسلامية وأهميتها في دراسة التاريخ والآثار والحضارة الإسلامية*. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
13. زابروف، مخائيل (1986م). *الصليبيون في الشرق*. (ترجمة: إلياس شاهين). موسكو: دار التقدم.
14. السمان، أحمد (1954م). *تاريخ المذاهب والنظم الاقتصادية*. سوريا: المطبعة السورية.
15. سميث، جوناثان رايلي (2007م). *حالة الصليبيين الذهنية تجاه الشرق*. في: جوناثان سميث، تاريخ أكسفورد للحروب الصليبية. (ترجمة وتقديم وتعليق: قاسم عبده). القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
16. السيد، علي احمد (1998م). *الخليل والحرم الابراهيمي عصر الحروب الصليبية*. القاهرة: دار الفكر العربي.
17. السيد، محمود (1998م). *تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية*. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
18. سيميوفا، ل.أ، (1999م). *صلاح الدين والممالك في مصر*. (ترجمة: حسن بيومي). القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
19. شبرلر، برتولد (1982م). *العالم الإسلامي في العصر المغولي*. (نقله إلى العربية: خالد أسعد). راجعه وقدم له: سهيل زكار. دمشق: دار حسان.
20. الصاعدي، هيفة صالح (2012م). *الأوبئة والأمراض في العصرين الأيوبي والمملوكي في مصر والشام*. (رسالة ماجستير غير منشورة). المملكة العربية السعودية: جامعة طيبة.
21. صبرة، عفاف سيد (1983م). *العلاقات بين الشرق والغرب، علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة ما بين 1100_1400م*. القاهرة: دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع.
22. الصيفي، أحمد إبراهيم (2019م). *القوافل التجارية بين مصر وبلاد الشام فترة الحروب الصليبية*. دمشق: نور حوران للدراسات والنشر والتوزيع.
23. طواهية، فوزي (2015م). النشاط التجاري وحركة الأسعار في مصر زمن الأيوبيين (569_ 648هـ /1173_1250م)، *مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية*، م42، ع2، الأردن.
24. عاشور، سعيد (1977م). *الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي، في: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى*. بيروت، جامعة بيروت.
25. علي، علي السيد(2000م). *طريق القوافل القاهرة–دمشق في عصر الحروب الصليبية، ندوة طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر العصور*. القاهرة: منشورات اتحاد المؤرخين العرب.
26. القوصي، عطية (1976م)، *تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية*. القاهرة: دار النهضة العربية.
27. كاهن، كلود (1995م). *الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية*. (ترجمة: أحمد الشيخ). القاهرة: سينا للنشر.

28. كحالة، عمر (1994م). *معجم قبائل العرب القديمة والحديثة*. بيروت: مؤسسة الرسالة.
29. كرد علي، محمد عبد الرزاق (1983م). *خطط الشام*، دمشق: مكتبة النوري.
30. مختار، أحمد، وآخرون (2008م). *معجم اللغة العربية المعاصرة*. القاهرة: عالم الكتب.
31. مهران، زكريا (2014م). *التاريخ يفسر التضخم والتقلص*. القاهرة: مؤسسة هنداوي.
32. ميتز، آدم (1947م). *الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري*. (نقله إلى العربية: محمد عبد الهادي). فهرسة: رفعت البدراوي. بيروت: دار الناشر العربي.
33. النبراوي، رأفت (2000م). *النقود الإسلامية منذ بداية القرن السادس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري*. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
34. النبراوي، رأفت (1996م). *النقود الصليبية في الشام ومصر*. القاهرة: دار نهضة الشرق.
35. هايد، ف (1985م). *تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى*. (ترجمة: أحمد رضا). مراجعة وتقديم: عز الدين فودة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
36. هنتس، فالتر (1970م). *المكاييل والموازين الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري*. (ترجمة: كامل العسلي). الأردن: الجامعة الأردنية.
37. ويلسون، سام بول؛ نوردهاوس، ويليام (2001م). *الاقتصاد*. (ترجمة: هشام عبد الله). مراجعة: أسامة الدباغ. عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2001م.
38. يموت، سهيل، (د.ت). *النقطة الرابعة عرض وتحليل*. بيروت: مطبعة الإتحاد.

ثالثًا: المصادر والمراجع الأجنبيَّة.

1. Albert of Aachen, (2007). *History of The Journey to Jerusalem*, Trans: Susan Edgiton. New York: Oxford University press.
2. Archer.T.A, Kingford. (1894). *The Crusade the History of The Latin Kingdom of Jerusalem*, New York: booker press.
3. Ehrenkreutz, A, S. (1954). C*ontribution of Knowledge of The Fiscal Administration of Egypt in The Middle Ages*, London: Bulletin of the School of Oriental and Afrin Studies.
4. Fabri, Felix, *The Book of Wandering of Brother Felix Fabri*. (Trans, by, Stewart Aubery). London.
5. Flint, R.F, Skinner, B, J. (1974). *Physical Geology*, London, John Wiley.
6. Goitein, S.D. (1999). *A Mediterranean Society, The Jewish Communities of the World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza*, London, University of California Press.
7. Lane Pool, Stanly. (1901). *History of Egypt in middle Ages*, New York.
8. Mclynn, F, Richard and John.(2007). *Kings at War*, Philadelphia: Dacapo press
9. Milwrit. M. (2000) *The Fortress of Raven, Karak in the Middle Islamic period (1100-1650), in Islamic History and Civilization*, Leiden, Boston: Gunnther. S, Brill,
10. Nicolle.p, and Mcbride.(1986). *A. Saladin and The Saracen Armies of The Middle East (1100-1300), in "Man _at_ Arms series"*, London, ed By Windraw.
11. Paul, Jean Roux. (2003). *Genghis Khan and Mongol Empire*, London.
12. Titt, Charles.(1937). *Boat and Caravan through Egypt and Syria, fifth edition*, London.
13. Salvator, Ludwing. (1881). *Caravan Route between Egypt and Syria*. (Trans. From German by wartegg). London.
14. Smith, J.R. (1973). *Government in Latin Syria and the Commercial Privileges of Foreign Merchants, in the relation between east and west in the middle age*, Edinburg, Barker.

References:

1. Ibn al-Atheer, Abu al-Hasan Izz al-Din Ali ibn al-Makarim Muhammad ibn Abd al-Karim al-Shaibani al-Jazari (d. 630 AH), al-Kamel in History, revised and corrected by Muhammad al-Daqqaq, Beirut, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, 1993 AD.
2. Ibn al-Azraq al-Farqi, Judge Imad al-Din Ahmad Ibn Yusuf (d. 577 AH) The History of Ibn al-Azraq, investigation, Omar Abd al-Salam Tadmuri, Sidon, Al-Asriya Library, 2016 AD.
3. Ibn Iyas, Muhammad ibn Shihab al-Din ibn Ahmad ibn Iyas Abu al-Barakat al-Hanafi (d. 930 AH), Badaa' al-Zohoor fi Waqa'i al-Duhur, Cairo, Madbouly Library, 2005 AD.
4. Ibn Aibak Al-Dawadari, Abi Bakr bin Abdullah bin Aybak (d. 8 AH), the treasure of Al-Durar and the Mosque of Gharar, the required role in the news of the kings of Bani Ayyub, investigation, Saeed Ashour, Cairo, Issa Al-Halabi Library, 1972 AD.
5. Ibn Bara, Mansour bin Bara Al-Dhahabi Al-Kameli (d. 1135 AH), Uncovering Scientific Secrets in the Egyptian Dar Al-Darb, investigation, Abdul Rahman Fahmy, United Arab Republic, House of Revival of Islamic Heritage, 1966 AD.
6. Ibn Taghri Bardi, Abu al-Mahasin Jamal al-Din Yusuf bin Amir Saif al-Din Taghri Bardi al-Atabaki al-Yashbakawi al-Zahiri (d. 874 AH), The Shining Stars in the Kings of Egypt and Cairo, 1st Edition, presented to him and commented on, Muhammad Hussein Shams al-Din, Beirut, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, 1992 AD. .
7. Ibn Taymiyyah, Taqi al-Din Abu al-Abbas Ahmad ibn Abd al-Halim ibn Abd al-Salam al-Hanbali al-Dimashqi (d. 728 AH), Hisba in Islam, or the Islamic Government Job, Beirut, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, d.T.
8. Ibn Taymiyyah, Taqi al-Din Abu al-Abbas Ahmad ibn Abd al-Halim ibn Abd al-Salam al-Hanbali al-Dimashqi (died 728 AH), Fatwa Collection, investigation, Abd al-Rahman ibn Muhammad ibn Qasim, Kingdom of Saudi Arabia, The Prophet's City, King Fahd Complex for the Printing of the Holy Qur'an, 1416 AH.
9. Ibn Duqmaq, Sarim al-Din Ibrahim bin Muhammad bin Aydmar al-Ala'i al-Qahiri (d. 809 AH), Nuzha al-Anam in the History of Islam, study and investigation, Samir Tayyara, Beirut, Al-Asriya Library for Printing and Publishing, 1999 AD.
10. Ibn Haji Khalifa, Mustafa bin Abdullah (d. 1067 AH), Uncovering Doubts about the Names of Books and Arts, Baghdad, Al-Muthanna Library, 1941 AD.
11. Ibn al-Halabi, Reda al-Din Muhammad ibn Ibrahim ibn Yusuf al-Halabi al-Hanbali (d. 971 AH), Butter and Beat in the History of Aleppo, achieved by Muhammad al-Tunji, Kuwait, Publications of the Center for Manuscripts and Heritage, 1988 AD.
12. Ibn al-Sa'i, Abu Talib Ali Anjab bin Othman bin Abdullah (d. 674 AH), the short collector in the title of History and Eyes of the Secret, investigation, Mustafa Jawad, Baghdad, Syriac Press, 1934 AD.
13. Ibn Sibat, Hamza bin Ahmed bin Omar al-Maghribi (died after 926 AH), The Truth of the News, or The History of Ibn Sibat, investigation, Omar Tadmuri, Tripoli, Gross Press Press, 1993 AD.
14. Ibn Sina, Abu Ali Sharaf King Hussein bin Abdullah bin Al-Hassan bin Sina Al-Balkhi Al-Bukhari (d. 428 AH), The Law in Medicine, edited and annotated by Mujmmad Amin Al-Danawi, Beirut, Scientific Books House, 1999 AD.
15. Ibn Shahanshah, Taqi al-Din al-Mansur Muhammad bin Taqi al-Din Omar bin Shahanshah al-Ayyubi (d. 617 AH), the field of facts and the secret of creation, investigation, Hassan Habashi, Cairo, the world of books, d.T.

16. Ibn Shaddad, Bahaa al-Din Abu al-Mahasin Yusuf bin Rafi' bin Tamim (d. 632 AH), The Dangerous Relationships in the Remembrance of the Princes of the Levant and the Jazira, achieved by Yahya Zakaria Ayada, Damascus, Ministry of Culture - Heritage Revival, 1988 AD.
17. Ibn Shaddad, Bahaa al-Din Abu al-Mahasin Yusuf bin Rafi' bin Tamim (d. 632 AH), the Sultan's anecdotes and the Yusufian merits, the biography of Salah al-Din, investigation, Jamal al-Shayal, Cairo, Al-Khanji Library, 1994 AD.
18. Ibn Tulun, Muhammad bin Ali bin Ahmed bin Tulun Al-Salihi Al-Hanafi (died 953 AH), the essential necklaces in the history of validity, investigation, Muhammad Al-Hussein, presented to him, Mazen Mubarak, Amman, Arwaqa House for Studies and Publishing, 2013 AD.
19. Ibn al-Abri, Jamal al-Din Gregory bin Harun bin Touma al-Malti (d. 685 AH), The History of Time, translated into Arabic, Isaac a widow, presented to him, Jean Faures Fiey, Beirut, Dar al-Mashreq, 1991 AD.
20. Ibn Al-Adim, Kamal Al-Din bin Al-Adim bin Omar bin Ahmed bin Abi Jarada (d. 660 AH), in order to request in the history of Aleppo, investigation, Suhail Zakkar, Beirut, Arab Thought House for Printing and Publishing, 1988 AD.
21. Ibn al-Adim, Kamal al-Din Omar Ibn Ahmad Ibn Heba Allah Ibn Abi Jarada (d. 660 AH), Butter of Milk in the History of Aleppo, his footnotes, Khalil Mansour, Beirut, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, 1996 AD.
22. Ibn al-Imad al-Hanbali, Abu al-Falah Abd al-Hay Ibn Ahmad Ibn Muhammad Ibn al-Imad al-Akri al-Hanbali (d. 1089 AH), nuggets of gold in Akhbar Min Dahab, investigation, Mahmoud al-Arna`ut, his hadiths came out by Abd al-Qadir al-Arna`ut, Damascus, Dar Ibn Katheer, 1989 AD.
23. Ibn Al-Ameed, Sheikh Abdullah bin Gerges bin Abi Yasser bin Abi Al-Makarim bin Abi Al-Tayeb (d. 671 AH), Ayyubid news, Cairo, Al-Thaqafa Library, d.T.
24. Ibn al-Furat, Shams al-Din Ibn Nasir al-Dabban Muhammad Ibn Abd al-Rahim Ibn Ali Ibn al-Hassan al-Masry (d. 807 AH), the clear path taken to know the translations of caliphs and kings, known as the history of Ibn al-Furat, verified and commented on by Hassan al-Shama`, Basra, d.n. 1970 AD.
25. Ibn Fadl Al-Omari, Shihab Al-Din Ahmed bin Yahya bin Fadlallah (d. 749 AH), Paths of the Vision in the Kingdoms of Al-Amsar, investigation, Kamel Al-Jubouri, Beirut, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, 2010 AD.
26. Ibn al-Fawti, Abi al-Fadl Abd al-Raziq bin Ahmad between Abi al-Ma'ali al-Shaibani (d. 723 AH), The Collective Incidents and Useful Experiences in the Seventh Centenary, presented by Muhammad Rida, Mustafa Jawad, Baghdad, The Arabic Library, 1351 AH.
27. Ibn Qayyim al-Jawziyya, Shams al-Din Abu Abdullah Muhammad ibn Abi Bakr al-Hanbali al-Dimashqi (d. 751 AH), Prophetic Medicine, investigation, Hamed al-Taher, Cairo, Cultural Office for Publishing and Distribution, 2004 AD.
28. Ibn Qayyim al-Jawziyya, Shams al-Din Abu Abdullah Muhammad ibn Abi Bakr al-Hanbali al-Dimashqi (died 751 AH), Judicial Methods in Sharia Politics, investigation, Issam Harastani, Hassan Abdel-Mannan, Beirut, Dar al-Jeel, 1998.
29. Ibn Katheer, Imad al-Din Abi al-Fida Ismail bin Kathir al-Qurashi al-Dimashqi (d. 744 AH), The Beginning and the End, his hadiths came out, Ahm Shaban, Muhammad Ayadi, Cairo, Al-Safa Library, 2002 AD.
30. Ibn Manzoor, Abu al-Fadl Jamal al-Din al-Ansari, Muhammad ibn Makram ibn Ali al-Afriqi (d. 711 AH), Lisan al-Arab, Beirut, Dar Sader, 1414 AH.

31. Ibn Nazif Al-Hamawi, Abi Al-Fadael Muhammad bin Ali bin Nazif (d. 630 AH), Al-Mansoori History, summarizing the disclosure and statement in the accidents of time, investigation, Abu Al-Eid Dodo, review by Adnan Darwish, Damascus, Al-Hijaz Press, 1981 AD.
32. Ibn Wasel, Jamal al-Din Muhammad bin Salem (d. 697 AH), Mufarrej al-Karub in Bani Ayyub News, investigation, Jamal al-Shayyal, Hassanein Rabie, Saeed Ashour, Cairo, House of National Books and Documents, 1957 AD.
33. Ibn al-Wardi, Zain al-Din Omar Ibn Muzaffar (d. 749 AH), Tarikh Ibn al-Wardi, Beirut, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, 1996 AD.
34. Ibn Yahya, Salih bin Saif al-Din Yahya bin Saleh bin al-Hussein al-Tanukhi (died about 850 AH), the history of Beirut and the news of the Bahtari princes from Bani al-Arab, investigation, Louis Sheikho the Jesuit, Beirut, Catholic Press, 1898 AD.
35. Abu Shama, Abu al-Qasim Shihab al-Din Abd al-Rahman bin Ismail al-Maqdisi al-Dimashqi (d. 665 AH), the translations of the men of the sixth and seventh centuries AH, known as the tail on the two kindergartens, he put his footnotes and commented on it, Ibrahim Shams al-Din, Beirut, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, 2002 AD.
36. Abu Shama, Abu al-Qasim Shihab al-Din Abd al-Rahman bin Ismail al-Maqdisi al-Dimashqi (d. 665 AH), The Two Rawdahs in the News of the Two States, Al-Nouriah and Salihiyah, investigated by Ibrahim Shams Al-Din, Beirut, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, 2002 AD.
37. Abu al-Fida, the supporter Imad al-Din Ismail bin Ali bin Mahmoud bin Omar bin Shahanshah bin Ayyub (d. 732 AH), the brief on the news of humans or the history of Abu al-Fida, 1st edition, commented on it and his footnotes, Mahmoud Dioub, Beirut, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, 1997 AD. .
38. Abu al-Fadl al-Dimashqi, Jaafar bin Muslim bin Ali al-Dimashqi (d. 6th century AH), referring to the advantages of trade and the deception of fraudulent people in it, 1st edition, cared for, presented to him and commented on, Mahmoud Arnaout, Beirut, Dar Sader, 1999 AD.
39. Al-Badri, Abi Al-Baqa Abdullah bin Muhammad Al-Masri Al-Shafi'i (d. about 894), Nuzhat Al-Anam in the Mahasin of the Levant, Beirut, Dar Al-Ra'id Al-Arabi, 1980 AD.
40. Al-Bandari, Al-Fath bin Ali bin Muhammad (d. 622 AH), Sana Al-Barq Al-Shami, summary of Al-Barq Al-Shami by Imad Al-Isfahani, investigated by Fathia Al-Nabrawi, Cairo, Al-Khanji Library, 1979 AD.
41. Al-Jubari, Abdul Rahim bin Omar bin Abi Bakr Jamal Al-Din Al-Dimashqi (d. 7 AH), The Chosen One in Uncovering Secrets and Breaking the Stars, Damascus, Center of Arab Civilization for Media, Publishing and Studies, 1998 AD.
42. Al-Hamawi, Muhammad Yassin, Damascus in the Ayyubid Era, Damascus, The Hashemite Press, 1946 AD.
43. Al-Dalji, Shihab Al-Din Ahmed bin Ali Al-Masry (d. 838 AH), Al-Falaqa and Al-Maflokoun, Egypt, Al-Sha`b Press, 1322 AH.
44. Al-Dhahabi, Shams Al-Din Abu Abdullah Muhammad bin Ahmed bin Othman bin Qaymaz (d. 748 AH), The History of Islam and the Deaths of Celebrities and Media, investigation, Omar Abdel Salam Al-Tadmari, Beirut, Dar Al-Kitab Al-Arabi, 1993 AD.
45. Al-Dhahabi, Shams Al-Din Abu Abdullah Muhammad bin Ahmed bin Othman bin Qaymaz (d. 748 AH), the life of the nobles, investigation, group of investigators, supervision, Shuaib Arnaout Beirut, Al-Resala Foundation, 1985 AD.

46. Sibt Ibn al-Jawzi, Shams al-Din Abi al-Mudhaffar Youssef Qazogali bin Abdullah (d. 654 AH), The Mirror of Time in the History of Notables, investigation, Ibrahim al-Zaybak and others, Damascus, Dar al-Resala, 2013 AD.
47. Al-Sarakhsi, Shams of the Imams, Muhammad bin Ahmad bin Abi Sahel (d. 483 AH), Al-Mabsout, Beirut, Dar Al-Maarifa, 1993 AD.
48. Al-Suyuti, Jalal al-Din Abd al-Rahman bin Abi Bakr al-Khudairi (d. 911 AH), revealing the clink on the description of the earthquake, investigation, Muhammad Kamal al-Din, Beirut, World of Books, 1987 AD.
49. Al-Sharif Al-Idrisi, Abi Abdullah Muhammad bin Muhammad bin Abdullah bin Idris Al-Hamawi (d. 559 AH) Nuzha Al-Mushtaq fi piercing the horizons, Beirut, World of Books, 1989 AD.
50. Sheikh of Rabwah, Shams al-Din Abi Abdullah Muhammad bin Abi Talib al-Dimashqi (d. 727 AH), the elite of eternity in the wonders of land and sea, investigation and correction, Mehran Mikhail, Petersburg, Academy Press, 1865 AD.
51. Al-Shaizari, Abd al-Rahman bin Nasr al-Shafi'i (d. 589 AH), the end of the rank in the request for the calculation, published by Al-Baz Al-Areni, supervision, Muhammad Ziada, Cairo, Press of the Composition, Translation and Publishing Committee, 1946 AD.
52. Al-Safadi, Salah al-Din Khalil bin Aybak bin Abdullah (d. 764 AH), the masterpiece of the souls, investigation, Ihsan Kholousi, Zuhair Hamdan, Beirut, Dar Sader, 1990 AD.
53. Al-Safadi, Salah al-Din Khalil bin Aybak bin Abdullah (d. 764 AH), Al-Wafi in Deaths, investigation, Ahmed Al-Arnaout, Turki Mustafa, Beirut, House of Revival of Arab Heritage, 2000 AD.
54. Al-Suri, William (d. 581 AH), The Crusades, translation and commentary, Hassan Habashi, Cairo, The Egyptian General Book Authority, 1995 AD.
55. Abd al-Latif al-Baghdadi, Muwaffaq al-Din Ibn al-Labbad, Abd al-Latif ibn Yusuf ibn Muhammad (d. 629 AH), the journey of Abd al-Latif al-Baghdadi, benefit and consideration in matters of observation, accidents and inspection in the land of Egypt, supervision, Abd al-Rahman al-Sheikh, Cairo, Egyptian General Book Authority, 1998 AD, Pg. 146_147.
56. Al-Imad Al-Isfahani, Imad Al-Din Abu Hamid Muhammad bin Muhammad Al-Isfahani (d. 597 AH), Al-Barq Al-Shami, investigation, Faleh Hussein, Amman, Abdul Hameed Shoman Foundation, 1987 AD.
57. Al-Imad Al-Isfahani, Imad Al-Din Abu Hamid Muhammad bin Muhammad Al-Asfahani (d. 597 AH), Al-Bustan collecting all the histories of the people of time, investigation, Muhammad Al-Ta'ani, Irbid, Hamada Foundation for University Studies, Publishing and Distribution, 2011 AD.
58. Al-Imad Al-Isfahani, Imad Al-Din Abu Hamid Muhammad bin Muhammad Al-Isfahani (d. 597 AH), the cruel conquest of the divine conquest, the wars of Salah Al-Din and the conquest of Jerusalem, presented to him and put his footnotes and commented on it, Ibrahim Shams Al-Din, Beirut, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, 2003 AD.
59. Al-Aini, Abu Muhammad Badr Al-Din Al-Aini Al-Hanafi Mahmoud bin Ahmed bin Musa Al-Hafiz (d. 855 AH), the Juman contract in the history of the people of time, the Ayyubid era, investigation and study, Mahmoud Rizk, Cairo, House of Books and National Documents, 2003 AD.
60. Al-Ghasani, Al-Ashraf Ismail bin Al-Abbas (d. 803 AH), the molten rug and the woven substance in the layers of Caliphs and Kings, investigation, Shaker Abdel Moneim, Baghdad, Dar Al-Bayan, 1975 AD.

61. Al-Farahidi, Abu Abdul-Rahman Al-Khalil bin Ahmed bin Ghoneim Al-Basri (d. 170 AH), Al-Ain book, investigation, Mahdi Al-Makhzoumi, Ibrahim Al-Samarrai, d.d., Dar and Library of Al-Hilal, d.
62. Al-Qalqashandi, Shihab Al-Din Ahmed bin Ali bin Ahmed Al-Fazari Al-Qaheri (d. 821 AH), Subh Al-Asha in the Ensha Industry, explained and commented on, Muhammad Hussein Shams Al-Din, Beirut, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, 1987 AD.
63. Al-Gujarati, Jamal Al-Din Muhammad Taher bin Ali Al-Siddiqi Al-Hindi Al-Fatni (d. 986 AH), Bihar Al-Anwar Complex in the strangeness of downloading and Taif Al-Akhbar, 3rd edition, the Ottoman Knowledge Circle Press, 1967 AD.
64. Al-Mawardi, Abu Al-Hassan Ali bin Muhammad bin Muhammad bin Habib Al-Basri Al-Baghdadi (d. 450 AH), the great Al-Hawi in the jurisprudence of the Shafi'i school, an explanation of the brief Al-Mazni, investigation, by Ali Moawad, Adel Abdul-Jawad, presented to him, Muhammad Bakr Ismail, Beirut, Dar. Scientific Books, 1994 AD.
65. Al-Makhzoumi, Abu Al-Hasan Ali bin Abi Muhammad bin Yusuf (d. 585 AH), selected from the curriculum in the science of the abscess of Egypt, published and verified by Claude Kahn, review, Youssef Ragheb, Cairo, French Scientific Institute of Oriental Archeology, 1986 AD.
66. Al-Maqrizi, Abu Al-Abbas Taqi Al-Din Ahmed bin Ali bin Abdul-Qader bin Muhammad Al-Obaidi (d. 845 AH), Relief of the Nation by Uncovering the Grief, 1st Edition, Study and Investigation, Karam Farhat, Cairo, Ain for Humanitarian and Social Studies, 2007 AD.
67. Al-Maqrizi, Abu Al-Abbas Taqi Al-Din Ahmed bin Ali Ibn Abdul-Qader bin Muhammad Al-Obaidi (d. 845 AH), The Behavior to Know the Countries of Kings, investigation, Muhammad Abdul-Qadir Atta, Beirut, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, 1997 AD.
68. Al-Nuwairi, Shihab Al-Din Ahmed bin Abdul-Wahhab, (d. 733 AH), The End of the Lord in the Arts of Literature, Cairo, Heritage Realization Center, 1992 AD.
69. Al-Yafi'i, Abi Muhammad Abdullah bin Asaad bin Ali bin Suleiman Al-Yafi'i Al-Yamani (d. 768 AH), the mirror of the heavens and the lesson of the awakening in knowing what is considered to be the events of time, his footnotes, Khalil Mansour, Beirut, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, 1997 AD.
70. Yaqoot al-Hamawi, Shihab al-Din Abu Abdullah Yaqut bin Abdullah al-Roumi al-Hamawi (d. 626 AH), guiding an Arab person to the knowledge of the writer, known as the lexicon of writers or the layers of writers, took care of copying and correcting it, Q. Margaliot, Beirut, Dar Sader, d.
71. Yaqout al-Hamawi, Shihab al-Din Abu Abdullah Yaqout bin Abdullah al-Roumi al-Hamawi (d. 626 AH), Lexicon of Countries, Beirut, Dar Sader, 1995 AD.
72. Al-Yunini, Qutb al-Din Musa bin Muhammad (d. 726 AH), the tail of the mirror of time, Cairo, Dar al-Kutub al-Islami, 1992 AD.
73. Ashtor, A., The Economic and Social History of the Middle East in the Middle Ages, translated by Abd al-Hadi Abla, review, Ahmed Sabano, Damascus, Dar Qutaiba, 1985 AD.
74. Al-Awtani, Ahmed, Damascus in the Ayyubid Era, a political, economic, social, and cultural study, presented by Suhail Zakkar, Damascus, composition for authorship, translation and publishing, 2007 AD.
75. Barker, Ernst, The Crusades, Translated into Arabic, Sayyid Al-Baz Al-Arini, Beirut, Dar Al-Nahda Al-Arabiya, 1967 AD.
76. Baraw, Yosha, The Crusader Settlement in Palestine "The Kingdom of Jerusalem", translated by Abdel Hafez Al-Banna, Dar Ayn for Studies, 2001.

77. Al-Baili, Muhammad Barakat, Economic Crises and Epidemics in Islamic Egypt, Cairo, D.N., 1986 AD.
78. Al-Banna, Abdel Hafez, Sham Markets in the Era of the Crusades, Cairo, Ain for Studies, 2007.
79. Hussein, Hassan Abdel-Wahhab, Egypt and the security of the Red Sea in the era of the Crusades, a research published in the book "Articles and Research in the Social History of the Crusades", a series of studies in the history of the Crusades, No. 3, Alexandria, Dar Al-Maarifa Al-Jami'iyyah, 1997 AD.
80. Al-Huwayri, Mahmoud, Civilizational Conditions in the Levant in the Twelfth and Thirteenth Centuries, the Era of the Crusades, Cairo, Dar Al Maaref, 1979 AD.
81. Al-Derini, Muhammad Fathi, Comparative Islamic Jurisprudence with Doctrines, Damascus, Damascus University Publications, 1992 AD.
82. Al-Diwani, Mustafa, Hadith on Medicine, Cairo, Dar Al-Kateb Al-Arabi, 1969 AD.
83. Radwan, Taha Abdel-Alim, in General Geography, Cairo, Anglo Library, 1984 AD.
84. Ramadan, Atef Mansour, Islamic money and its importance in the study of history, archeology and Islamic civilization, Cairo, Zahraa Al Sharq Library, 2008 AD.
85. 1Zabrov, Mikhail, The Crusaders in the East, translated by Elias Shaheen, Moscow, Dar Al-Taqaddam, 1986 AD.
86. Al-Samman, Ahmed, History of Doctrines and Economic Systems, Syria, The Syrian Press, 1954 AD.
87. Smith, Jonathan Riley, The Crusaders' Mental State towards the East, The Oxford History of the Crusades, edited by Jonathan Smith, translation, presentation and commentary, Qassem Abdo, Cairo, Ain for Human and Social Studies and Research, 2007 AD.
88. Al-Sayed, Ali Ahmed, Hebron and the Ibrahimi Mosque in the Era of the Crusades, Cairo, Dar Al-Fikr Al-Arabi, 1998 AD.
89. El-Sayed, Mahmoud, History of Arab Tribes in the Era of the Ayyubid and Mamluk States, Alexandria, University Youth Foundation, 1998 AD.
90. Simyova, LA, Salah al-Din and the Kingdoms in Egypt, translation, Hassan Bayoumi, Cairo, The Supreme Council of Culture, 1999 AD.
91. Spearler, Berthold, The Islamic World in the Mughal Era, Translated into Arabic, Khaled Asaad, revised and presented to him, Suhail Zakkar, Damascus, Dar Hassan, 1982.
92. Al-Sa'edi, Haifa Saleh, Epidemics and Diseases in the Ayyubid and Mamluk Periods in Egypt and the Levant, an unpublished master's thesis, Saudi Arabia, Taibah University, 2012.
93. Sabra, Afaf Sayed, Relations between East and West, Venice's relationship with Egypt and the Levant in the period between 1100-1400AD, Cairo, Dar Al-Nahda Al-Arabiya for printing, publishing and distribution, 1983AD.
94. Al-Saifi, Ahmed Ibrahim, Trade Caravans between Egypt and the Levant during the Crusades, Damascus, Nour Houran for Studies, Publishing and Distribution, 2019.
95. Tawahieh, Fawzy, Commercial Activity and Price Movement in Egypt in the Time of the Ayyubids (569_ 648 AH / 1173 _ 1250 AD), Journal of Human and Social Sciences Studies, Vol. 42, Vol. 2, Jordan, 2015 AD.
96. Ashour, Said, Emperor Frederick II and the Arab East, in the book "Research and Studies in the History of the Middle Ages", Beirut, University of Beirut, 1977 AD.
97. Ali, Ali Al-Sayed, The Cairo-Damascus Caravan Road in the Era of the Crusades, Symposium on Global Trade Routes through the Arab World through the Ages, Cairo, Publications of the Union of Arab Historians, 2000 AD.

98. Al-Qousi, Attia, Egypt's trade in the Red Sea from the dawn of Islam until the fall of the Abbasid Caliphate, Cairo, Arab Renaissance House, 1976 AD.
99. Kahn, Claude, East and West in the Time of the Crusades, translation, Ahmed Al-Sheikh, Cairo, Sina Publishing, 1995 AD.
100. Kahala, Omar, A Dictionary of Ancient and Modern Arab Tribes, Beirut, Al-Resala Foundation, 1994 AD.
101. Kurd Ali, Muhammad Abdul Razzaq, Plans of the Levant, Damascus, Al-Nouri Library, 1983 AD.
102. Mukhtar, Ahmed, and others, Dictionary of Contemporary Arabic Language, Cairo, World of Books, 2008.
103. Mahran, Zakaria, History Explains Inflation and Contraction, Cairo, Hendawy Foundation, 2014.
104. Metz, Adam, Islamic Civilization in the Fourth Hijri Century, Translated into Arabic, Muhammad Abd al-Hadi, Indexing, Refaat al-Badrawi, Beirut, Dar al-Nasher al-Arabi, 1947 AD.
105. Al-Nabrawi, Raafat, Islamic coins from the beginning of the sixth century until the end of the ninth century AH, Cairo, Zahraa Al-Sharq Library, 2000 AD.
106. Al-Nabrawi, Raafat, Crusader Coins in the Levant and Egypt, Cairo, Nahdat Al-Sharq House, 1996 AD.
107. Hyde, F, History of Trade in the Near East in the Middle Ages, translation, Ahmed Reda, review and presentation, Ezz El-Din Fouda, Cairo, Egyptian General Book Organization, 1985 AD.
108. Hunts, Walter, Islamic Weights and Scales and their Equivalents in the Metric System, translation, Kamel Al-Asali, Jordan, University of Jordan, 1970 AD.
109. Wilson, Sam Ball; Nordhaus, William, Economics, translation, Hisham Abdullah, review, Osama Al-Dabbagh, Amman, Al-Ahlia for Publishing and Distribution, 2001 AD.
110. Yamout, Suhail, (D.T), the fourth point, presentation and analysis, Al-Ittihad Press, Beirut.